مدخل الى نظرية ابن خلدون

في علم الاجتماع

بسام طيبي
فرنكفورت

اذا ألقينا نظرة على قواميس الفلسفة بحثاً عن اسم ابن خلدون ، نجد عدة عبارات مثل العبارة التالية « مؤرخ للحضارة ، فيلسوف تاريخ ، لم تكتشف أهميته بشكل عام بعد»(١). حقاً انه من العجيب ألا يعطى مؤلف مثل مقدمة ابن خلدون - التي يسميها المستشرق فرانتز روزنتال « احدى المنجزات البشرية العظمى»(٢) - الاهتمام الذي يستحقه ، وأن يبقى هذا المؤلف غير معروف لمدة تقارب الخمسة قرون :

---

(١) Philosophisches woerterbuch, ed. G. Schischkoff. Stuttgart 1965 الطبعة السادسة عشرة p. 259 .

(٢) F. Rosenthal. The Muqaddimah, An Introduction to History. New York 1958, p. ixxxvii .

يقول المؤرخ الشهير توينبي أن ابن خلدون قد « فكر وصاغ فلسفة التاريخ ، وهي بدون شك ، أعظم مؤلف من نوعه كتب حتى الآن من قبل أي مفكر في كل زمان ومكان »(١). حقاً أن مقدمة ابن خلدون مؤلف عظيم لمؤلف عبقري،لكن توينبي يبالغ هنا كثيراً لا سيا وأنه فيلسوف تاريخ ومؤرخ محافظ يجد في فلسفة ابن خلدون - التي تحوي في طياتها الفكر المحافظ - سنداً لفكره ، إذ أن فلسفة ابن خلدون تؤكد أن التاريخ يدور في حلقات مفرغة ويعيد نفسه من خلال هذه الدورات . كان ابن خلدون ، إذن ، اول من طور نظرية الأدوار Cyclus Theory التي يؤمن بها اليوم مؤرخون وفلاسفة محافظون مثل توينبي مما يجعل هؤلاء المفكرين الغربيين مثل توينبي وتلامذته (مثلاً المفكر الالماني اسفالد شبنغلر) يستشهدون بابن خلدون ويتفاخرون بمقدمته.

وهذا هو سبب مبالغة توينبي في الاستشهاد المورد أعلاه . لكن نظرية ابن خلدون لا تقتصر على فكرة الأدوار التاريخية فحسب ، بل تحتوي على نظريات اخرى عديدة.

من المعروف أن ابن خلدون قد صاغ نظريته في القرن الرابع عشر أي في عصر بدأت فيه الحضارة العربية بالأفول كمقدمة لعصر الانحطاط . وقد ساعد هذا الوضع التاريخي على نسيان نظرية ابن خلدون لمدة تقارب الخمسة قرون . وقد بين الاستاذ ساطع الحصري هذه الحقيقة بوضوح وأشار الى أن ما كتبه ابن خلدون كان « بمثابة البذور التي تنثر في ارض قاحلة ، أو بمثابة الفسائل التي تغرس بعد فوات الموسم فانها لن تجد التربة الصالحة لانتعاش تلك البذور ، والجو الملائم لتنمية تلك الاغراس . ولهذا لم يجد عمل ابن خلدون تلاميذاً وشراحاً ومعقبين »(٢).

ليبين توينبي أهمية ابن خلدون، فانه يقارنه بعدد من كبار رجال الفكر الاغريقي - الاوربي . فيقول أن عمل ابن خلدون « يمكن مقارنته باعمال مثل مؤلفات ثوكايديدس Thucydides أو مكيافيلي ، وذلك بسبب عمق النظرة واتساعها والقوة العقلية الحادة»(٣).بل ان توينبي يذهب الى ابعد من ذلك باعطاء ابن خلدون قيمة اعظم من المفكرين الاوربيين الآخرين ، لأن هؤلاء كانوا « ممثلين لامعين لعصور ولأمكنة لامعة » (٤) ،

---

(١) A. J. Toynbee. A Study of History . Volume III, London 1951 p. 322 .

(٢) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . طبعة موسعة، القاهرة ١٩٦١ (مكتبة الخانجي) صفحة ١٣٩ .

(٣) Toynbee, op. cit. , p. 321 .

(٤) Ibid .

بينا كان ابن خلدون « نقطة الضياء الوحيدة في عصره »(١)، ومن هنا الاعجاب الذي يستحقه ابن خلدون .

علم العمران :

يرى ابن خلدون ان الوظيفة الرئيسية للعلم الجديد ، الذي يسميه بـ «علم العمران»، هي تحليل لنشوء الحضارة الانسانية وتطور بنيتها ، ومصيرها. ويفهم ابن خلدون الحضارة على انها «الاجتماع الانساني». ويعرف علمه الجديد كمايلي: «الاجتماع الانساني.. هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات البشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعة من الاحوال » (المقدمة ، الكتاب الاول ، صفحة ٣٥) .

ويؤكد ابن خلدون ضرورة تأسيس العلم الجديد فيقول : « واذا كانت كل حقيقة معلقة طبيعية، يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه » (الكتاب الاول ، صفحة ٣٨) .

ويوضح ابن خلدون العلم الجديد، ويبين أنه يأتي بشيء جديد تماماً : «هذا علم مستقل بنفسه، فانه ذو موضوع – وهو العمران البشري والاجتماع الانساني – وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى» (نفس الصفحة) ويؤكد ابن خلدون أن « علم العمران » علم جديد فهذا العلم « مستحدث الصنعة غريب النزعة .. وليس من علم الخطابة ..ولا هو ايضاً من علم السياسة المدنية » (نفس الصفحة).

ومما يثير الاعجاب بنظرية ابن خلدون أنها نظرية مادية ، وديالكتيكية احياناً ، وتاريخية بنفس الوقت . فهي مادية لأنها لا تعتقد بالعوامل المثالية، بل انها تؤكد ان العوامل المادية هي المحركة للتاريخ . وهي ديالكتيكية، لأنها ترى ان التاريخ نتيجة لتحرك التناقضات . وهي تاريخية ، لأنها تحاول ان تفهم كل فترة تاريخية على انها مرحلة من مراحل المسيرة التاريخية الشاملة .

وهكذا فان ابن خلدون عالم مجتمع وفيلسوف تاريخ بالدرجة الأولى ، وهو مؤرخ فقط بالدرجة الثانية . أي أن ابن خلدون لم يدرس التاريخ من أجل التأريخ، بل إنه درس التاريخ من أجل تفهم المسيرة الاجتماعية وحركتها . وقد أشار فؤاد البستاني إلى أن التأريخ بالنسبة لابن خلدون علم مساعد ، بينا العلم الرئيسي هو علم العمران (٢) .

(١) « Ibid »

(٢) فؤاد البستاني : ابن خلدون . الروائع، جزء ١٤ بيروت ١٩٥٠ طبعة ٢

ومن العجيب أن يصر الدكتور مهدي على إساءة فهم نظرية ابن خلدون ، فهو لايقول أن ابن خلدون لم يأت بشيء جديد – كما بينا أعلاه – فحسب، بل إنه يصر أيضاً على أن ابن خلدون كان بالدرجة الأولى مؤرخاً . فيتحدث الدكتور مهدي عن « وضع علم العمران تحت التاريخ » في نظرية ابن خلدون ، ثم يضيف في مكان آخر قائلاً : « إذ أن التاريخ، وليس علم العمران ، يتصل مباشرة بالعمل السياسي »(١). وهنا يبرهن الدكتور مهدي – مرة أخرى – على أنه لم يفهم ابن خلدون جيداً . ولنحتكم إلى المؤرخ الكبير توينبي بهذا الشأن ؛ حجة الدكتور مهدي هي أن ابن خلدون قد كتب ٦ مجلدات عن علم التاريخ ومجلداً واحداً عن علم العمران أي المقدمة ، وهذا معناه – على حد قول الدكتور مهدي – أن علم التاريخ هو الهدف الرئيسي لنشاط ابن خلدون العلمي . أما توينبي المتعمق جداً في نظرية ابن خلدون فيقول حرفياً :« لو أننا وضعنا أمام الاختيار القاسي بالإبقاء على المقدمة على حساب التخلي عن الاجزاء الستة الاخرى (٢) فعلينا ألا نتردد في التضحية بالاجزاء الستة الاخرى » (٣) ، وهنا نرى أن توينبي لايحكم على الكم بل على الكيف ، أي أن مقدمة ابن خلدون تساوي أكثر بكثير من الاجزاء الستة التاريخية من « تاريخ ابن خلدون » وهذا ما لم يدركه الدكتور مهدي . إن ابن خلدون عالم مجتمع كما اكتشفه غومبلوفتش،وليس مؤرخاً كما يريد أن يصوره لنا الدكتور مهدي .

ويحاول ابن خلدون عن طريق « علم العمران » الامساك بالظواهر الاجتماعية علمياً وتحليل عللها حسب مبدأ السببية ، ولكن ليس عن طريق الميتافيزيقا بل عن طريق رصد حركة التاريخ وتتبعها . فعن طريق الامساك باللحظات التاريخية المنفصلة وفهمها في الاطار التاريخي الشامل ، يمكن فهم الحركة العامة للتاريخ . وقد اشار الأستاذ دي بور T . J . de Boer الى أن ابن خلدون « كان أول من حاول أن يربط بين تطور الاجتماع الانساني علله القريبة » (٤) ، ويعجب ابن خلدون لانه لم يجد أحداً ممن سبقه يقوم بالتحليل الاجتماعي، ويقول عن علمه :«وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ، ما ادري ألغفلتهم عن ذلك ... » (الكتاب الأول صفحة ٣٨) .

---

(١) M. Mahdi , op . cit . , p. 291 ff , p.

(٢) من تاريخ ابن خلدون .

(٣) Toynbee , op . cit . , p. 328 .

(٤) de Boer , Geschichte der Philosophie im Islam , Stuttgart 1901

ويعلم خلدون انه يقوم بالبداية فقط ، فهو رغم عبقريته لايتطاول ويقول أنه قدم كل اسس علم المجتمع ، بل العمل الأولي فقط، عمل الرائد العلمي . فيتحدث ابن خلدون في نهاية مقدمته عن علم العمران ، ويقول : «وقد استوفينا من مسائله ماحسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ... يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وإنما عليه **تعيين موضع العلم وتنويع فصوله** وما يتكلم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً » (صفحة ٥٨٨) .

نشوء المجتمعات

في النظريات السياسية الاوربية نظريتان تتنازعان ولكل واحدة انصارها : الاولى وهي قديمة جداً وصاحبها أرسطو الذي يقول : « إنه من طبيعة الانسان أن يكون اجتماعياً ولذلك تنشأ المجتمعات » وعبارته الشهيرة : « الانسان حيوان سياسي » قد اصبحت جزءاً من الفكر الاوربي بصورة عامة .

أما النظرية الأخرى فهي حديثة ومنشؤها يعود الى القرن السابع عشر ، وهي نظرية هوبز Hoppes التي تقول : « ان الانسان ذئب على أخيه الانسان » homo homini lupus est Physei zoon politikon لذلك كان هوبز يرى ضرورة السلطة التي تنهي حالة الطبيعة State of Nature حيث لاتوجد أية سلطة . وهدف السلطة وضع حد لشرور كل إنسان ضد الآخرين .

ونظرية هوبز هي نظرية المجتمع الرأسمالي المبكر حيث تشمل المضاربة في الاسواق جميع مجالات الحياة وهذه المضاربة تجعل كل انسان ذئباً على أخيه الانسان . وهذا هو الانسان الرأسمالي ، وليس الانسان بشكل عام .

لننتقل الآن إلى ابن خلدون : الروعة في نظرية ابن خلدون هي انها تحتوي بنفس الوقت على نظرية ارسطو ونظرية هوبز ، وهكذا يزول التناقض بين النظريتين قبل أن يخلق ، إذ أن ابن خلدون عاش في القرن الرابع عشر وهوبز في القرن السابع عشر .

يبين ابن خلدون أولاً طبيعة الانسان الاجتماعية – مثل ارسطو – فيقول : « إن الاجتماع الانساني ضروري » (الباب الأول من الكتاب الاول، صفحة ٤١) ثم يستشهد ابن خلدون بأرسطو فيقول : « ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع » (نفس الصفحة) . ثم يشرح ابن خلدون ذلك بالتفصيل : « فلا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من

الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه (صفحة ٤١)، وهنا نرى النزعة المادية في نظرية ابن خلدون، فهو يبين إن العوامل الموضوعية هي التي تؤدي الى الاجتماع . وهذه هي الناحية الارسطية في نظرية ابن خلدون .

وقبل هوبز بثلاثة قرون اكد ابن خلدون ضرورة السلطة : « فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم » (صفحة ٤٣) . ونحن هنا لانوافق على كلام ابن خلدون ، فان هدف الممارسة الثورية هو الغاء السلطة . وكما بين لينين في كتابه « الدولة والثورة » ، فان السلطة في الدولة هي سلطة الطبقة الحاكمة ، وإن الثورة تهدف لتحطيم السلطة الطبقية بتهديم السلطة بشكل عام في المجتمع الشيوعي الحر حيث ينتقل البشر من عالم الضرورة الى عالم الإرادة . وربما كانت هذه الأفكار مبكرة جداً في أيام ابن خلدون .

يحاول ابن خلدون أن يشتق ظهور المجتمعات الانسانية تطورياً في التاريخ . ويدرك ابن خلدون هكذا « أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشىء عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليها لأن أول مطالب الانسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلاً » (صفحة ١٢٢) وهكذا يصل ابن خلدون الى النتيجة القائلة بأن المجتمع البدوي هو أصل وجذر المجتمعات البشرية . ولكن المجتمع البدوي يتطور — حسب نظرية ابن خلدون — الى مجتمع حضري، اذ أن جميع المجتمعات في تطور دائم ، وعجلة التاريخ لاتقف . هنا نرى الناحية التاريخية الديناميكية في نظرية ابن خلدون .

وهكذا تصور ابن خلدون — حسب تفسير الاستاذ نور (١) — نموذجين للمجتمعات : المجتمع البدوي والمجتمع الحضري . والمقياس الذي يستعمله ابن خلدون للبيان عما اذا كان المجتمع بدوياً أم حضرياً هو طريقة الكسب . لذلك يقول ابن

---

(١) نستشهد هنا بالترجمة العربية لكتاب دي بور (ترجمة عبد الهادي أبو زيده) القاهرة ١٩٥٧ ط ٤ صفحة ٤١٠؛ راجع : م . أ . نور : ابن خلدون مفكر عربي اجتماعي ، هذه الدراسة منشورة في كتاب : أعمال مهرجان ابن خلدون . القاهرة ١٩٦٢ صفحة ١٠٤ وما بعدها .

خلدون: « ان اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش » (المقدمة صفحة ١٢٠) .

ثم يحلل ابن خلدون النواحي الستاتيكية والنواحي الديناميكية للمجتمع . فالنواحي الستاتيكية (أي السكونية) هي الصفات العامة لكل من المجتمع البدوي والحضري . أما النواحي الديناميكية (أي الحركية) فهي العوامل التي تدفع بالمجتمع البدوي حتمياً الى التطور من البداوة الى الحضارة . وحسب تفسير الاستاذ عزت(١) : يتألف الديناميك الاجتماعي في نظرية ابن خلدون من حركتين : الحركة الاولى هي من الأسفل الى الأعلى أي من البداوة الى الحضارة ، أما الحركة الثانية فهي من أعلى الى أسفل أي من الحضارة الى الانحطاط . وهنا تظهر نظرية الأدوار التي يطورها ابن خلدون والتي لانوافق عليها بأي حال ، اذ أن التاريخ لايسير بحلقات مفرغة من البداوة الى الحضارة ثم الى الانحطاط ثم من جديد مرة أخرى وهكذا دواليك اذ أن التاريخ يسير بحركة حلزونية الى الاعلى عن طريق الصراع الطبقي . وقد بين هيغل في فلسفته للتاريخ أن المسيرة التاريخية تسير بخطى الى الأعلى الى اشكال انسانية افضل ، وقد أخذ ماركس عنه هذه الفكرة بعد أن لاحظ خلال دراساته ان حركة التاريخ تسير الى الأعلى مع بعض النكسات لذلك فالحركة حركة حلزونية .

وقد بينا في أول هذه الدراسة أن ابن خلدون هو أول من طور نظرية الأدوار وأخذها عنه الفيلسوف الألماني الرجعي أوسفالد شبنغلر Spengler . O في كتابه « افول الغرب » المترجم أيضاً للعربية(٢) . كذلك أخذها عنه ارنولد توينبي . ولكن

---

(١) راجع . أ . عزت : تطور المجتمع عند ابن خلدون في . اعمال مهرجان ابن خلدون ، المصدر المذكور آنفاً صفحة ٥٢ وما بعدها .

(٢) عنوان الاصل الألماني لكتاب شبنغلر هو :

Untergang des Abenplandes . Umriss einer Morphologie der Weltgeschichte

وقد صدر في جزأين وهما :

الجزء الأول : صدر عام ١٩١٨ Gestalt und Wirklichkeit, 1918

الجزء الثاني : صدر عام ١٩٢٢ Welthistorische Perspektiven, 1922

والترجمة العربية صدرت تحت عنوان : تدهور الحضارة الغربية - في ثلاثة أجزاء - عن دار مكتبة الحياة ،بيروت .

وترجمة عنوان الكتاب خاطئة وغير كاملة ،فالعنوان في الترجمة الصحيحة هو : افول الغرب ، مختصر لمورفولوجية التاريخ العالمي . وكتاب شبنغلر هو أحد الكتب الرجعية التي مهدت لظهور النازية والفاشية في المانيا . ومن المؤسف أن بعض المفكرين العرب المعاصرين متأثرون كثيراً بآراء شبنغلر .

ابن خلدون لم يكن رجعياً ، أو على الأقل لايوجد بحث علمي حتى الآن يبرهن على ذلك وأن كان ابن خلدون انتهازياً جداً - وهذا مابرهن عليه الدكتور علي الوردي في كتابه « منطق ابن خلدون » - ولكننا نعلم اليوم ان الانتهازية هي صفة السياسي المحترف . ولم يكن ابن خلدون ثورياً ، بل عالماً وسياسياً محترفاً . ومن ناحية اخرى لابد من توجيه النقد الى نظرية ابن خلدون عن الستاتيك والديناميك في المسيرة التاريخية ونشوء المجتمعات ، فابن خلدون يفصل فصلاً باتاً بين اللحظة الستاتيكية واللحظة الديناميكية في المسيرة التاريخية ولا يرى العلاقة الديالكتيكية بينها . فاللحظة الستاتيكية قد تكون ديناميكية في نفس الوقت ، وكذلك اللحظة الديناميكية أيضاً . وإذا كانت نظرية ابن خلدون ديالكتيكية ، فإن هذا لايعني أن اسلوب ابن خلدون ديالكتيكي مثل اسلوب هيغل وماركس ، رغم ان نظريته تحتوي على العديد من اللحظات الديالكتيكية .

ولكن كل هذا النقد لايقلل من أهميـــة ابن خلدون ، فمن السهل نقد ابن خلدون في مفـــاهيم القرن العشرين ولكن تمسكاً بالعلمية وبالعدالة بحق ابن خلدون فانه علينا نقد نظريته بمفاهيم عصره وليس هذا بالأمر السهل .

ولا بد هنا أيضاً من الاشارة الى قول الدكتور عياد من « أن ابن خلدون لم يكتف بالتفسير السوسيولوجي للتاريخ ، بل إنه شغل نفسه بالحياة الاجتماعية للانسان والقى بنظرات عميقة الى كوننته » (١) ، ومما يجدر ذكره أن الدكتور عياد نشر دراسته بالألمانية عام ١٩٣٠ وبين فيها ان قيمة ابن خلدون مثل قيمة كبار المفكرين الألمان . وقد استاء بعض العنصريين الألمان من هذا ، لأن ابن خلدون لم يكن آرياً ذا شعر اشقر وعيون زرقاء . ففي عام ١٩٣٣ - عام صعود هتلر الى الحكم وعام بدء الهمجية النازية - بدأ هجوم على الدكتور عياد . فقام أحد الفرسان وهو - الأستاذ ريشتر - بالهجوم على الدكتور عياد لانه وضع ابن خلدون في مصاف رجال الفكر الأوروبي . ويهزأ ريشتر بالدكتور عياد ، ويسمي ابن خلدون « بطل » الدكتور عياد (٢) .

وحدث في فرنسا شيء مماثل ، فقد هاجم العنصريون - بقيادة الأستاذ بوتول -

---

(١) K. Ayad , op. cit. ,p . 164 .

(٢) G. Richter , Das Geschichtsbild der Arabischem Historiker des Mittelalters, Tübingen 1933 .

الدكتور كامل عياد . لأنهم لم يرضوا وضع مفكر غير أوربي في مصاف الأوربيين (١) .

من العوامل السوسيولوجية في تطور الدول

العصبية :

ينظر الاستاذ ساطع الحصري الى نظرية « العصبية » لدى ابن خلدون على أنها النقطة الأساسية في نظريته العامة (٢) . ويوجد باحث أمريكي هو **مارتنديل** Don Martindale (٣) يصل الى نفس النتيجة ، أي أن نظرية العصبية تشكل محور فكر ابن خلدون .

أما الدكتور علي الوردي – وهو عراقي ومن كبار البحاث في نظرية ابن خلدون – فله رأي آخر ، فهو يعتقد ان نظرية الصراع بين البداوة والحضارة بجميع لحظاته الستاتيكية والديناميكية ، يشكل محور نظرية ابن خلدون .

ولا نستطيع هنا بمعلوماتنا المتواضعة أن نفصل في هذا الخلاف النظري بين كبار بحاث النظرية الخلدونية ، وإن كنا نميل للاعتقاد بأن كلا الطرفين على حق ، والمسألتان تشكلان معاً محور نظرية ابن خلدون . ونترك الباب مفتوحاً للنقاش .

لقد ترجم البارون دوسلان de Salan كلمة العصبية الى الفرنسية بكلمة esprit de corps ، أما الاستاذ الحصري فهو يعتقد أن هذه الترجمة وان كانت صحيحة فانها غير كافية ولا تعبر عما أراده ابن خلدون قوله تماماً (٤) .

---

(١) لقد قام الاستاذ حصري بنقد بوتول (راجع كتاب الحصري عن ابن خلدون صفحة ٦٢١ – ٦٣٣) دون التطرق الى نقد النواحي العنصرية في كتاب بوتول عن ابن خلدون . وقد تطرق الى هذه النواحي الدكتور علي الوردي في كتابه منطق ابن خلدون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ولكن بشكل جانبي .

(٢) ساطع الحصري : المصدر السابق ، صفحة ٣٣٣ .

(٣) D. Martindale , The Nature and Types of Sociological Theory , Bosten 1960 , P. 131 ff .

(٤) ساطع الحصري : المصدر السابق ، صفحة ٢٥٠ .

أما باحث ابن خلدون النمسوي الأستاذ فون كريمر Von Kremer ، فلقد ترجم كلمة العصبية بالكلمة الالمانية Nationalitaetsidee ، ولم يقبل البحاث الالمان والامريكان هذه الترجمة . فالباحث الامريكي فرانتز روزنتال F. Rosenthal (١) قد اعتبر هذه الترجمة خاطئة (٢) وقد ترجم روزنتال المقدمة كاملة الى انكليزية عام ١٩٥٨ . كما وضعت هذه الترجمة مترجمة المقدمة الى الألمانية الاستاذة أنّا ماري شيمل A. Schimmel (٣) .

أما باحث ابن خلدون الالماني ي . روزنتال فيقول أنه يكاد يكون من المستحيل ترجمة كلمة « العصبية » بأي كلمة اخرى من أية لغة أوروبية (٤) .

يعتقد كل من الدكتور كامل عياد (٥) وروزنتال الألماني (٦) ثم الأستاذ الألماني هلموت ريتر H. Ritter (٧) ، أن كلمة « العصبية » الصعبة جداً يقارب معناها كلمة virtu المعقدة أيضاً في نظرية مكيافيلي السياسية . ويشير كل هؤلاء العلماء الى الشبه بين نظرية ابن خلدون ونظرية مكيافيلي بشكل عام .

وقد اتفق الكثيرون على ان ترجمة كلمة « العصبية » غير ممكنة لذلك لابد من اعطاء محتوى هذه الكلمة بجملة كاملة . وأفضل محاولة من هذا النوع قام بها حتى الآن الدكتور كامل عياد « العصبية هي مجموع طاقات الحياة التي تجمع شمل مجتمع ما وتعطيه قوة الوعي الذاتي وتقرر مصير هذه القوة » (٨) .

ويقول ابن خلدون أن بعض الناس يعتقدون أن النسب والدم هما أصل العصبية ،

---

(١) لابد من التمييز بين فرانتز روزنتال F. Rosenthal الامريكي ، وايرفنغ روزنتال E. Rosenthal الألماني ، وكلاهما عالم في نظرية ابن خلدون ، وكلاهما من أخلص البحاث للتراث العربي .

(٢) F. Rosenthal , op. cit . , p. 2 .

(٣) A. Schimmel , Einleitung zu der Muqaddima , Tübingen 1951, p . XVIII .

(٤) E. Rosenthal, Ibn Khalduns Gedanken über den Ttaat, Muenchen und Berlin 1932 , p. 1 .

(٥) K. Ayad , op. cit . , p. 112 .

(٦) E. Rosenthal , op . cit . , p . 1 .

(٧) H. Ritter , Irrational Solidaity Groups , A Socio-psychological Study in Connection with Ibn Khalduns , In ; Oriens I, Leiden 1948 p. 2 .

(٨) K. Ayad , op. cit . , p. 112 .

ولهذا اعتنى العرب القدماء بنسبهم. ولكن ابن خلدون لايقبل هذه «العصبية الدموية» التي تقوم على النسب ويقول: « إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الصلة والالتحام » (المقدمة صفحة ١٢٩) . ومن الطريف ان الاستاذ الحصري قد اخذ هذه الفكرة عن ابن خلدون وبناها في نظريته عن القومية في مؤلفه « في الوطنية والقومية » (بيروت ١٩٦١ ط ٤) حيث يقول في الصفحة ٢٦ حرفياً ولكن دون أية اشارة الى أن أصل الفكرة في مقدمة ابن خلدون - : « ولنستطيع أن نقول بكل جزم وتأكيد: ان وحدة الاصل والدم في الامم انما هي من الاوهام التي استولت على العقول والاذهان ، من غير ان تستند الى دليل أو برهان » . ونص الحصري يكاد يطابق نص ابن خلدون حرفياً .

ويقول ريتر عن فكرة النسب لدى ابن خلدون : « انا نميل الى القول بأن فكرة النسب تملك شخصية وأهمية الايديولوجية التي تساعد على التطابق الاجتماعي » (١) .

ولا تملك العصبية صيغة نهائية في نظرية ابن خلدون ، بل أنها تتغير حسب الفترة التاريخية التي يصل اليها المجتمع المختص بالأمر .

فعصبية البداوة تختلف عن عصبية الامم الزراعية أو عصبية الحضارة . وهكذا يمكن ، عن طريق تحليل عصبية مجتمع ما معرفة الفترة التاريخية التي يمر بها هذا المجتمع. ويقول الأستاذ فون كريمر Von Kremer عن العصبية في نظرية ابن خلدون : « العصبية هي التي تقرر لوحدها عمر الامبراطوريات ، فهي تشكل روح الدولة الحيوية ، فكلما قويت العصبية كانت الدولة اقوى وكان عمر كيان الدولة أطول » (٢) وسنفهم قول فون كريمر هذا لدى تحليلنا لدور الدولة في نظرية ابن خلدون .

الاقتصاد

يلعب الاقتصاد دوراً هاماً في نظرية ابن خلدون السوسيولوجية ، ونجد في المقدمة عدداً من النظريات الاقتصادية الحديثة مما يثير الاندهاش .

---

(١) H. Ritter, op. cit., p. 20.

(٢) A. Von Kremer, Ibn Haldun seine Kulturgeschichte der islamischen Reiche. In: Sitzungsberichte der Akademie der wissenschaften zu wien 1878, p. 18.

مما يثير الاعجاب أننا نجد نظرية تقسيم العمل Division of Labour في المقدمة ، حيث يؤكد ابن خلدون اهميـــة تقسيم العمل « اذ ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية لمادة حياته منه » (صفحة ٤١). ومما يثير المزيد من الاعجاب هو أن ابن خلدون يفرق بين تقسيم العمل في مجتمع بدائي وتقسيم العمل في مجتمع حديث متحضر . ففي المجتمع البدائي يقسم العمل ولكن كل فرد في الخلية الاجتماعية يستطيع القيام بجميع الاعمال حيث لايوجـــد تخصص . اما في المجتمع الحضري فان تقسيم العمل معقد بسبب التخصص فلايستطيع الفرد القيام بجميع الاعمال وانما فقط بعمل تخصص به (راجع المقدمة صفحة ٤٠٥ ومابعدها) فهذا الذي يقدمه لنا حديث جداً ولم تعرفه أوربا قبل آدام سميث و ريكادو .

وعن طريق هذا التخصص يزول الوعي الجماعي والتماسك الاجتماعي في المجتمع ، وتبـــدأ الفردية بالظهور لتحل عوضاً عن الجماعية « فلكل واحد منهـــا صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً وتكثر باختلاف ماتنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال الترف » (صفحة ١٧٢) ... ويحاول باحث ابن خلدون السوفياتي ليفين أن يبحث في التحليلات الاقتصادية في المقدمة عن نواحي للتشابه مع النظرية الماركسية ومفهوم التاريخ المادي . وتحليلات ليفين (١) مقبولة وتقوم على اسس علمية . ويحلل ليفين مفهوم العمل عند ابن خلدون ، ويرى الشبه مع مفهوم العمل الماركسي . ويعتمد ليفين خاصة على النصوص التالية : يقول ابن خلدون عن العمل « فلابد من الاعمال الانسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر ، وان لابد فيه من العمل الانساني كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع » (المقدمة صفحة ٣٨١). ثم يضيف ابن خلدون بمزيد من الوضوح لايدع مجالا للشك « اذ لولا العمل لم تحصل قنيتها . وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل» (صفحة ٣٨٢) ويقول ابن خلدون « كلما كثر العمل في البضاعة كلما كثرت قيمتها » أي اذ كان « العمل فيها اكثر فقيمته اكثر » (نفس الصفحة)

ولو وقعت هذه النصوص بأيدي ماركس لكان ماركس من اكبر المعجبين بابن

---

(١) بحث ليفين الذي نعتمد عليه اسمه (Lewine , Ibn Chaldun ابن خلدون سوسيولوجي عربي من القرن الرابع عشر) والاصل باللغة الروسية ومنشور في مجلة Novyj Vostok . ولعدم اجادتنا اللغة الروسية ننقل ماجاء في بحث ليفين عن المصدر التالي:
E. Rosenthal op. cit. p . , 27

خلدون . فابن خلدون يطور هنا نظرية للقيمة تشابه بشكل كبير النظرية الماركسية القائلة بأن العمل مصدر القيمة وبأن التاريخ عبارة عن تحويل الانسان العامل للطبيعة وموارِدها الى قيم مادية .

لنأت بالمزيد من نصوص ابن خلدون التي تثير المزيد من الاعجاب والدهشة . يقول ابن خلدون : « فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق منها في تحصيل حاجاته وضروراته » (صفحة ٣٨٠) . يؤكد ابن خلدون هنا ضرورة العمل من اجل الكسب . فاذا زاد الكسب عن الحاجة فان هذا سوف يؤدي الى تراكم رأس المال وهـذا يحدث - هكذا يرى ابن خلدون - فقط في المجتمع الحضري حيث يزيد الانتاج عن الحد الكافي لارواء الحاجات . ويشير ابن خلدون الى ان السلطة تساعد اصحابها على استغلال الآخرين وتملك القيمة الزائدة التي ينتجها الاخرون . لنستمع الى كلمات ابن خلدون الذهبية « وذلك أنا نجـد صاحب المال والحظوة في جميع اصناف الحياة اكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه. مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه في سبيل التزلف والحاجة الى جاهه . فالناس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته من ضروري او حاجي او كمالي . فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع معاشاته أن تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه . فهو بين قيم الأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعو الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً وثروة» (المقدمة صفحة ٣٨٩) . والوضوح في هذا الاستشهاد من المقدمـة غني عن التعليق . والشبه مع نظرية القيمة وفضل القيمة الماركسية يسطع مثل ضوء الشمس .

ولكن مايؤخذ عليه في بحث ليفين Lewine (وهو من اصل يهودي ولكن غير صهيوني) هو أنه يحاول ان يظهر ابن خلدون كماركسي ، وهذا غير ممكن ابداً . فمثلا نشير هنا الى ان النظرية الماركسية نظرية ثورية تريد تغيير المجتمع ، بينما نظرية ابن خلدون تريد فقط أن تصف المجتمع . والنظرية الماركسية تريد القضاء على السلطة، بينما تريد نظرية ابن خلدون تثبيت السلطة ... الخ

لهذه الاسباب فأنا اؤيد ي. روزنتال E. Rosenthal عندما يقول: «ورغم القرابة بين ابن خلدون والاراء الماركسية في بعض النقاط، فاننا يجب ان نحـذ من أن نرى في ابن خلدون انساناً ماركسياً » (١)

---

(١) E. Rosenthal , op. cit . , p. 72 .

وقد قام عالم اقتصاد امريكي – وهو جوزيف سبنغلر Joseph Spengler – بتحليل آراء ابن خلدون الاقتصادية . ويشير سبنغلر الى أن نظريات ابن خلدون الاقتصادية تحمل صيغة سوسيولوجية في نفس الوقت اذ أن هذه النظريات «رغم انها تتعلق بشكل كبير بالشئون المتعددة لصناعة الحياة (أي الكسب) فانها ليست منفصلة تماماً عن مناقشته لقضايا أخرى مثل الاختلافات بين الحضارة والبداوة والأسس السوسيولوجية لقوة الجماعة ومسيرة انتهاء الحياة القبلية البدوية » (١) .

وهكذا نرى دور الاقتصاد كعامل في التطور الاجتماعي في نظرية ابن خلدون. كذلك نرى أن التطور الاقتصادي – كما يراه ابن خلدون – يسير مع التطور السياسي للدولة ومع الانتقال الحضاري من البداوة الى الحضارة. وابن خلدون يرفض تدخل الدولة في شئون الاقتصاد . وهنا نرى قرابة بينه وبين اقتصاديي الرأسمالية الليبرالية في القرن الثامن عشر في اوربا الذين كانوا ينظرون للدولة كحارس ليلي لمصالحهم ، ويرفضون ما نسميه في المصطلح الحديث الايتاتية Etatism أي سياسة تدخل الدولة في شئون الاقتصاد. ولن نتطرق الى هذه الناحية بالتفصيل .

من الملاحظ جداً أن نظرية ابن خلدون الاقتصادية تحمل في طياتها بذور حضارة رأسمالية. ولم يكتب لهذه الحضارة الرأسمالية العربية التطور لأسباب عديدة يحتاج شرحها الى بحث خاص. وهكذا سقطت الدولة العربية مرة أخرى في الاقطاعية منذ حوالي القرن الخامس عشر .

ورغم وجود بذور الرأسمالية في نظرية ابن خلدون ، فاننا نجد مع هذه البذور خليطاً من الافكار الاقطاعية . فمن المعروف ان الاقتصاد الاقطاعي يحتقر الصناعة والتجارة ويقلل من قيمة اولئك الذين يتعاملون بهما . وهذا ماحدث في اوربا في القرون الوسطى. ونجد هذا التفكير بوضوح في نظرية ابن خلدون الاقتصادية . يقول ابن خلدون محتقراً التجار : « ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك وذلك ان التجار في غالب احوالهم انما يعانون البيع والشراء ولابد فيه من المكايسة ضرورة . . وهي – اعني خلق المكايسة – بعيدة عن المروءة التي يتخلق بها الملوك والاشراف» (المقدمة صفحة ٣٩٦) ولولا الفقرة الاخيرة التي يمجد فيها ابن خلدون أفراد الطبقة الاقطاعية ، لكان نقده

(١) Spengler , Economic Thought of Islam : Ibn Khaldun , In : Comparative Studies in Societies, Vol . VI , The Hague 1964 , p. 293 .

للاخلاق الرأسمالية نقداً اشتراكياً. ولكن نقد ابن خلدون للرأسمالية يبقى اقطاعياً، فهو يشيد بالاقطاع ويتباهى على الرأسماليين ويسميهم« اهل الطبقة السفلى » (نفس الصفحة). والنقد الاقطاعي للرأسمالية تحول في عصرنا الى النقد الرأسمالي للبروليتاريا، حيث يتحدث رجال الفكر البرجوازي في عصرنا عن البروليتاريون على انهم « اهل الطبقة السفلى ».

تطور الدول :

ورغم آراء ابن خلدون الاقتصادية البالغة الأهمية، فانه علينا أن نحذر من تسمية ابن خلدون « ابا الاقتصاد ». كما يفعل الاستاذ المصري م . ه . مراد في بحث له عن نظرية ابن خلدون الاقتصادية (١). اذ ان ابن خلدون كان يهتم بعلم العمران » أي علم المجتمع.

بعد أن حللنا العوامل المحركة للتاريخ حسب نظرية ابن خلدون ، أصبح من السهل التطرق الى تحليل مسيرة نشوء الدول وتطورها وأفولها كما رآها ابن خلدون .

وفي البدء لا بد من الاشارة الى ابن خلدون يفهم هـــذه المسيرة كبنية بيولوجية biological organism . فالدولة في رأي ابن خلدون لها حياة وعمر مثل الانسان : تولد وتتطور ثم تموت . وبالطبع فنظرية الدولة كبنية بيولوجية تتعلق بنظرية الأدوار Cyclus Theory التي طورها ابن خلدون والتي تصور التاريخ وكأنه يسير في حلقات مفرغة يعيد نفسه كل مرة. يقول ابن خلدون :

« اعلم أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواتـــه ولا من احواله . فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات - الانسان وغيره - كائنة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال **وخصوصاً الانسانية** (المقدمة صفحة ١٣٦) .
وهذا المنطلق النظري يطبقه ابن خلدون على الدولة ،فتبدو له وكأنها كائن بيولوجي .

وقد أبدى ي . روزنتال E.Rosentusl اعجابه البالغ بابن خلدون ، وذلك في دراسته « أفكار ابن خلدون حول الدولة » وذلك بعد أن استخلص من هذه الدراسة أن ابن خلدون ـ رغم أفكاره الخاطئة عن الدولة ككائن بيولوجي ـ ينظر الى الدولة نظرة علمية فهو يحاول الامساك بالدولة كظاهرة تاريخية . وابن خلدون ـ كما يقول روزنتال ـ لا ينظر الى الدولة على انها تحقيق لاهداف أخلاقية او ميتافيزيقية . وابن خلدون

---

(١) راجع : م . ه . مراد : في اعمال مهرجان ابن خلدون . القاهرة ١٩٦٢ صفحة ٣١٣ حيث يريد مراد تسمية ابن خلدون « ابا الاقتصاد » وهذا غير صحيح .

لا يفضل نوعاً من الدول على الانواع الاخرى . كل هذا يجعل ابن خلدون . روزنتال متفوقاً على فلاسفة الدول الاوربيين . (١)

لنتابع آراء ابن خلدون حول نشوء الدول : ان المجتمع الاولي هو المجتمع البدائي، وهو أصل الدولة . والعصبية هي الرابطة الرئيسية لافراد المجتمع البدوي البدائي وهناك عصبية رئيسية تربط جميع الأفراد معاً ، عصبيات أخرى جانبية مثل عصبية الاسرة وعصبية العشيرة ، وأقوى العصبيات الجانبية . تحتل بواسطة قوتها مكان العصبية الرئيسية . يقول ابن خلدون :

« ان الرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون بعصبية ... فلابد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة » (صفحة ١٣٢). وفي الفترة الاولى يكون القائد والرئيس في المجتمع البدائي البدوي قائداً ورئيساً ديمقراطياً ،بحيث أنه لا يستطيع التسلط على أبناء عصبيته ، ويكون ارسطقراطياً ولكن بدون سلطة . اذا فالديمقراطية الشعبية تسيطر على المجتمعات البدائية حيث لاتوجد سلطة للانسان على أخيه الانسان .ولكن هذا الوضع لا يدوم ، اذ « ان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك » (صفحة ١٣٩) وهكذا يتطور قائد ديمقراطي الى قائد متسلط ديكتاتوري .

وينظر ابن خلدون الى عملية التطور هذه كعملية حتمية، اذ أن الدولة لاتستطيع النشوء دون الملك والسلطة . وكما يقول ابن خلدون . بعبقرية – فان « الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو ؛ الشكل الحافظ بنوعه لوجودهما » (صفحة ٧٢٦) . ويضيف ابن خلدون قائلاً : « الملكية ، معنى الدولة » (نفس الصفحة) .

تعني كلمتا « الملكية » و « الملك » – عند ابن خلدون – السلطان والسلطة بالمعنى الحديث . ونحن لا نجد عبارات كافية تعبر عن اعجابنا بابن خلدون . فهو يسبق لينين هنا ويقول ؛ الدولة هي السلطة ، ولادولة بدون سلطة . لذلك كان هدف لينين أن تهدم أجهزة الدولة في المرحلة الشيوعية حيث يقضى بذلك على سلطة الانسان على اخيه الانسان . والفرق بين ابن خلدون و لينين هو أن الاول كان يؤمن بحتمية السلطة التاريخية ، بينما كان لينين يؤمن بامكانية ازالة هذه السلطة .

---

(١) E. Rosenthal, op. cit. , p. 47 and passim

ومن الرائع في نظرية ابن خلدون نظرته الى مفهوم السلطة . فبينما كان الفلاسفة يعتقدون - حتى القرن الثامن عشر - بأن السلطة مشتقة من ارادة الله ، كان ابن خلدون يحاول تطوير مفهوم علمي تاريخي للسلطة . فهو يقول أن الفلاسفة يدعون بأن « الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر ... وهذه القضية للحكماء غير برهانية ... اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك (صفحة ٤٣ وما بعدها) وبعد ان تنشأ الدولة تبدأ بالتطور وهذا التطور بقوة عصبية هذه الدولة . فكلما قويت هذه العصبية ، كانت الدولة اقوى . والسبب في ذلك هو أن « قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية ، وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال ، فشأنها ذلك في الدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق ، واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه شأن الاشعة والانوار » (صفحة ١٦٣). ونرى هنا أن ابن خلدون يستعمل مفهوم الاشعة الفيزيائي في تطور نظريته . ولا بد هنا من الاشارة الى أن ابن خلدون يطبق العلوم الطبيعية وطرقها العلمية على العلوم الاجتماعية ، وهذا ما نلاحظه لدى جميع مراحل نظريته . ومن الملاحظ ان العلوم الاجتماعية الأوربية بدأت - منذ القرن الثامن عشر - بتطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية ونرى ذلك سان سيمون St. Simon وتلميذه أوغست كونت A.Comte مؤسس علم الاجتماع.

وقد بين هيغل مدى الخطأ الفاحش الذي يرتكبه اولئك الذين يطبقون منهج علم الطبيعة على علم الاجتماع ، وأيده وتبعه ماركس .

يحدد ابن خلدون عمر الدولة وسطياً بثلاثة اجيال ، وفي الجيل الرابع لكل دولة يبدأ عصر الانحطاط والأفول .

في فترة الجيل الأول يحافظ المجتمع على طبيعته البدائية وهي طبيعة الخشونة والاعتدال والشجاعة وكذلك طبيعة الديمقراطية الشعبية . وتكون العصبية . وهي في نظرية ابن خلدون ديناميك التاريخ في اوجها .

وفي فترة الجيل الثاني تبدأ الطبيعة الحضرية الاجتماعية بغزو العادات القديمة البدوية تدريجياً ، وينشأ هذا عن طريق الانتقال من الحياة البدوية واساليبها الى اسلوب حياة عدم التنقل أي حياة الحضارة . وهكذا يتحول العوز الى الرفاه وتتحول الارستقراطية الى الاوتوقراطية ، وذلك عن طريق نشوء السلطة وابتداء سلطة الانسان على أخيه الانسان.

أما في فترة الجيل الثالث الاخيرة، فان ما تبقى في مرحلة الثانية من العادات البدوية يختفي تماماً وتفقد العصبية قوتها رويداً رويداً ويتزايد الرفاه وكذلك تتزايد الكماليات وتبدأ هذه الفترة هذه بالانتهاء عن طريق الأفول في فترة الجيل الرابع .

يقسم ابن خلدون هذه الاجيال الثلاثة الى خمس احقاب تاريخية .

الاولى: فترة الديمقراطية والمشاركة في السلطة التي ليست على أحد . القائد الاجتماعي هو قائد كاريزماتي Charismatic ، وليس متسلطاً، ويتمتع بالارستقراطية ، فعادات العصبية البدوية تمنعه من احتلال مكانة اجتماعية تفضله على الاخرين .

الثانية: يبدأ القائد الاجتماعي بتملك السلطة ، فيتحول من ارستقراطي الى اوتوقراطي متسلط، ويحرم رفاقه في العصبية من مشاركته في السلطة .

الثالثة: هنا تبدأ الحياة الحضارية ، وتبدأ الثقافة ومنتجاتها بالازدهار فتزداد سلطة القائد الاجتماعي .

الرابعة : تنتهي الفترة الديناميكية (الحركية) ، وتبـدأ الفترة الستاتيكية (السكونية) .

الخامسة: فترة الاسراف ، وفترة الافول بنفس الوقت . يقول ي . روزنتال أن ابن خلدون لايكتفي بابراز هذه الاجيال الثلاثة ثم تقسيمها في احقاب تاريخية خمس بشكل عام ، بل إن ابن خلدون - كما يقول روزنتال - يثير الاعجاب عندما شرح بالتفصيل كيف تتحول العادات وتقاليد الفرد والاسرة مع التحول الاجتماعي الذي يذكره . أي أن ابن خلدون يرى كل ظاهرة اجتماعية من خلال المسير التاريخية ومن خلال التطور الاجتماعي (١)

ويستعمل ابن خلدون مفهوم القياس measurment الذي يستعمل في علم الاجتماع المجتمع الامريكي الحديث . ويريد ابن خلدون ان يقيس مدى تطور المجتمع نحو الانحطاط والافول ، ويطبق هذا المفهوم على ظاهرتين اساسيتين . يقول ابن خلدون اعلم ان مبنى الملك على اساسين لابد منهما : فالأول **الشوكة والعصبية** وهو المعبر عنه بالجند ، والثاني المال الذي هو قوام اولئك الجند . . . والخلل اذا طرق الدولة طرقهـا في هذين الاساسين » (صفحـة ٢٩٤) الشوكة - وهي في المصطلح الحديث العنف المادي - ثم المال - وهو في مصطلح الحديث الاقتصاد - هما مقياس قوة الدولة، ومن ثم تحولها نحو الانحطاط والافول .

---

(١) ibid . . p . 19

رسالة من أمي

حنا مينه

ولدي الحبيب حنا ، من أمك مريانا ،
وكاتبة الأسطر بنت أختك هيفاء ، تقبل يديك وتقول لك يا خالي لا تؤاخذني على هذا الخط وهذه الديباجة ، لأن ستي تضربني إذا تفاصحت وتقول: «خالك لا يحب التنويق[1]» ، وقد أقفلت الباب حتى لا أهرب ، وجدي الذي يشرب قال لي اكتبي :«يا باطنة كوني وسيعة تنالي المنى[2]» فصاحت به ستي : لا تدخل قصة الزير في المكتوب ، الولد حفظ « الجراوية » من كثرة ما رددتها .

---

(١) نوق الشيء صففه ونقه وتأنق فيه .

(٢) بيت منظوم من قصة الزير سالم ، والباطنة هي السريرة ، والمعنى إذا صبر الانسان ظفر ، وفي هذا التمني دعوة للصبر على المكاره والصمود لها .

صح ، كتبت هذا الكلام لبينما فرغت ستي من التفتيش تحت فراشها ، موجاءت بجرايد ومجـــلات ورسائل منك ، وقالت وهي تشير إلى جريدة فيها صورتك وأنت تضع يدك على خدك: لماذا خالك متكدر؟قلت : هذا « بوز »[1] يا ستي ! قالت : سدي « بوزك » [2] يامقصوفة العمر ، خالك متكدر أو صحته منحرفة ، أنت لا تعرفين أكثر مني ، لذلك نبدأ قولنا بالسؤال عن صحته وسلامته وشغله وعائلته ، وبعد الديباجة أقول له كلمتين فيهـا نصيحة من أم لولدها .

قلت لستي : ولماذا الديباجة ؟ فقالت : الديباجة ضرورية ، أبوك ، وديع ، سافر مرة الى الشام و كتب ديباجة حلوة لجدك ، انقلي منها بعض الجمل لخالك .

(ملاحظة من بنت أختك : سمعت أن والدي نقل الديباجة من كتاب « القول اللبيب في انشاء المكاتيب » ووضع اسم جدي مكان الفراغ ، الرسالة تحفظها ستي في صندوق جهازها مع صورتك الشمسية وهي الى جانبك بمنديلها « الاويا » [3]) .

حضرة العم العزيز والذهب الابريز ، حفظه المولى وابقاه ، آمـــين يا رب العالمين .

بعد لثم يديكم الطاهرتين ، وتقديم السلام الى امرأة عمي ، الدرة المصونة والجوهرة المكنونة ، نفيدكم اننا وصلنا الى بلاد الشام ، وسألنا عن ابن عمنـا ، فدلونا على « الكزّيتة [4] » التي يعمل فيها ، وصعدنا الى عنده في الطابق الثالث ،

---

(١) « بوز Poze » الوضع الذي يأخذه الانسان عند التقاط صورته

(٢) « بوز » الحلق : مخرج الكلام .

(٣) « الاويا » : تخاريم على شكل زهور صغيرة مشغولة بالابرة ، كانت توضع على حواشي مناديل الرأس للنساء .

(٤) الكزيتة : الجريدة ، عن كلمة Gazeta الأجنبية .

فوجدناه في وضع يرفع الرأس ، له مكتب و كرسي مثل الخواجات ، وينادونه يا أستاذ ، ويتكلم بالتلفون مثل الأفندية ، ويكتب على أوراق نقلاً عن الراديو ، والناس يدخلون عليه ويخرجون ، فقلت في نفسي : اين عينيك يا امرأة عمي ترى ابنك الذي كان في بلدنا حلاقاً على باب القشلة [1] ، فصار في الشام أكابر [2] . وتذكرت يوم فتحنا له الدكان ، وأخذنا المراية [3] من عندنا ، والكرسي من بيت عمه ، وبقيت مشكلة البنطلون ، لأن الزبائن ضحكوا عليه ، وقالوا هذا الولد بالبنطلون القصير راح يتعلم الحلاقـــة بذقننا ، ورفضوا الحلاقة عنده ، فجاء الى البيت مكسور الخاطر ، واشتكى من هذه الجهة حتى جرح قلبي ، فحملت بنطلوني العتيق الى جواد الخطاط ، الخياط في البازار ، فقلّبه له ورتاه [4] من القعدة والأكمام ، وألبسناه إياه بعد أن وضعنا بدل الزنار تكة [5] عمي حتى لا يقشط [6] من خصره الذي يدخل فيه المحبس [7] . . . تذكرت هذه الحكاية وأنا أنظر الى ابن عمنا على المكتب ولا أصدق عيني ، وقلت : الله المعطي ، وإن شاء الله لا يبطر ويلبس أصله وفصله مثل غيره ، لأن ابن آدم نسّاء ، وبعد أخذ ورد معه ، تبيّن لي أن الولد ما زال على حاله ، لم تفسده النعمة ، وذهبنا من هناك الى مطعم الصفا عندجسر فيكتوريا ، وأكرمنا غاية الاكرام ، وفي المساء سهرنا في

(١) القشلة : الثكنة .

(٢) اكابر : كبار ، والمقصود اصحاب المقام .

(٣) المراية : المرآة .

(٤) رتاه : رفاه ، يرفو الجورب أي يرتيه .

(٥) التكة : البريم القماشي في السروال لربطه حول الخصر .

(٦) يقشط : يزحل .

(٧) المحبس : خاتم الخطوبة أو الزواج .

« التاترو »[1] . وفي اليوم الثاني رحنا الى سوق الحميدية ، وأسواق كثيرة ، صدق من قال « الشام شامة وعلى خد الدهر علامة » ، ومع هذا كله اشتقت إليكم ، وأردت الرجوع فمنعني ، وابقاني ليزيد في اكرامي ، وأنا أكتب هذه السطور لأطمئنكم وأسأل خاطركم ، ولا يمكنني وصف كل شيء في مكتوب واحد ، والأفضل أن أخبركم بالتفصيل عند رجوعي ، وفي الختام لكم مني ألف سلام ، وهذا ما جرى معي في بلاد العرب ... ودمتم » .

صح، قرأت المكتوب لستي وأفهمتها أنه لا توجد فيه جمل حلوة لأنقلها ، ولكن ستي نعرتني فبكيت ، وفتح جدي النائم عينيه وقال : « يا باطنة كوني وسيعة ... » فغضبت ستي وقالت : بدل مساعدتي على كتابة الديباجة تنام وتقلقنا بباطنتك !؟ . فقال جدي ملاطفاً : يا حرمة ، البنت طفلة ، وما عندها خلق للتطويل ، قولي أفكارك بكلمتين وينتهي الأمر . فقالت ستي إذن اكتبي كما أقول لك ، بدون زيادة ولا نقصان وبدون تشويق .

البارحة جاءني سابا ابن أم مطانيوس بالجريدة التي فيها صورتك ويدك على خدك ، وكما قلت لك انشغل بالي ، ولكن انشغل بالي أكثر من الكلام الذي قلته . أنا لا أفهم بالنحوي ، ولكن سابا ، وهو ابن مدرسة ، قرأ لي الجريدة وفسرها . تقول : أمي أدخلتني المدرسة لأفك الحرف وهذا صحيح، ومن حرق قلبي على نفسي أنا الجاهلة نذرت تعليمك ، وأخبرك بهذه المناسبة أن ١٤ سنة مرت ولا خبر أو مخبر من عند عمك البعيد ، ولا أحـــد في الحارة يكتب لنا كلمتين ، وأخيراً عزمت سلوم النجار على سفرة[2] طويلة عريضة ، وقام كتب

---

(١) التاترو : التياترو ، المسرح ، الملهى .

(٢) سفرة : مائدة .

الديباجة في تلك الليلة ، ووعد في اليوم الثاني أن يبيّضها ، وهذا وجه الضيف[١] ، وبعد سنة حملت الديباجة الى عبد الله صباغ، الله يرحمه ، فما استطاع أن يفكها ، ويوم مرضت بالحمّى وأنت صغير ، وطلبت المدرسة ورقة من بد والدك ، ما وجدنا من يكتبها ، فرحت لعند المعلم نعيم – وهو كاهن الآن في ابرشية [٢] الشام ، رجاني أن تمر عليه وتقبل يده وتلثم ذيل حبرته[٣] نيابة عني ، فتفضل و كتب أنك مرضت بالتيفوئيد ، وهـــذا كله جرى ، وأنت صادق ، ولكن ما الداعي لذكر والدك بالسوء ؟ قلت انه لم يفكر بأمر المدرسة وأنه في اجازة دائمة من التفكير ، وسمع هـــذا الكلام بأذنه فقال : « يا باطنة كوني وسيعة ... ! » وأنا انزعجت عنه، وحتى لو كان يسكر ، ويضربني،ولا يصلي، فهو خيمة البيت ، منديل على راسي ، ولا يجوز أن تقول أنه لا يفكر ، فالذي لا يفكر حمار . (ملاحظة من بنت اختك : سمع جدي هذه الكلمة فصاح : لا تكتبي هذا العلاك يا بنت ! لكن ستي قالت : لا تزعل يا ابن الأوادم ، أنا أدافع عنك وأنبه الولد حتى يعرف كيف يتكلم في الجرايد ، فغضب جدي وقال : دينك على دين الجرايد ! وعندئذٍ قالت ستي : إذن اقلبي هـذه الصفحة ، قلبي على زوجي وقلب زوجي على الحجر !) .

صح ، هنا طلبت ستي أن أقرأ لها الجريدة ، حتى تتذكر المسألةالثانية ، فلما وصلت الى جواب السؤال الثـــاني ، أوقفتني وقالت : عندك ! كل المكتوب لأجل هذا ... ونصت علي :

---

(١) هذ وجه الضيف : ذهب ولم يرجع – توارى .

(٢) أبرشية : مطرانية – مقر المطران .

(٣) حبرة الكاهن : ثوبه الكهنوتي .

جوابك على هذا السؤال جعل الفأر يلعب بعب بيت عمك يا ابني ، سألوك عن أهم شيء في حياتك فقلت المرأة وقضية المستقبل ، وأنا فهمت أن المرأة هي المرأة ، يعني زوجتك ، وأولاد الحلال كثار ، حملوا الجريدة وراحوا لبيت عمك وقالوا : نعيماً ، صهركم في الشام ، عاشق ! وبيت عمك عاتبوني ، وقالوا ما كان الأمل من ابنك تطلع منه هذه المطاليع ، فقلت لهم ابني بعيد عن هذه الأفعال ، وهو يقصد زوجته ، أم أولاده ، لكن ابن عمك الفصيح قال : لا يا أم حنا ، المرة غير المرأة .. المرأة هنا اسم جنس (وكتب لي هذه العبارة في ورقة) ومعناها كل امرأة ، فلطمت على خدي لهذا الخبر ، وقلت ما معقول أبداً ، وصار الاتفاق أن نسأل الخوري بعد صلاة الأحد ، وأنا أكتب إليك هذا المكتوب حتى أعرف الحقيقة ، لأني لا أصدق ولو رأيت بعيني ، فابني الذي أعقل من البنت لا تطرف عينه على غير زوجته .

وأما قضية المستقبل فهذه جيدة ، عندما يقولون للانسان ، الله يستر آخرتك ، يعني يجعل آخرتك أفضل ، وآخرة الانسان مستقبله ، وكذلك آخرة الوطن ، ووطننا من يوم فتحت عيوني على الدنيا يتعذب يا حسرتي ! أيام العثمانيين ذقنا الامرين ، وكانت أيام الفرنسيين ألعن ، ومن اللواء هاجرنا على يد الاتراك ، ومن فلسطين على يد اليهود ، والنتيجة ؟ الى أين ؟ في الانجيل ان من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ (ملاحظة : هنا رسمت ستي اشارة الصليب وأضافت :) وإذن ، فطالما اخذوا أراضينا بالسيف فلا بد ان نأخذها بالسيف ، وبيتنا الذي في اسكندرون ، وقبر اختك ، وبيوت اللاجئين في فلسطين وأراضيهم ؟ في هذه معك حق ، وياليتك لم تذكر المرأة ، فالنسوان سبب كل علة ، وأبوك المغرم بقصة الزير يقول :

من النسوان بالـــك ثم بالك   ولو قالوا نزلنا من السما (١)

وإذا كان أبوك يحفظ كلام الزير ولا ينتفع به ، فاحفظه أنت وانتفع به اي اسمع كلام الواعظ ولا تفعل أفعـاله كما تقول جارتنا ، وهذا مالزم عرفنا كم والسلام .

صح ، قرأت المكتوب لستي فصارت تضحك ، وأشارت باصبعها الى مكان البياض وقالت : اكتبي له هنا : « الصيت الحسن أفضل من المال المجموع» ، وهنا « طاعة الوالدين من طاعة الله » ، وهنا « كن مع الحق ولا تبال » ، فقلت ياستي : هذا غير ضروري ، فنعرتني وقالت : امائي الفراغات يابنت . ثم جاءت في السهرة ملهوفة وقالت : اقرأوا لي هذه الجريدة ، لأن جارنا قال لي : الصحف في الشام تأخذ وتعطي مع ابنك هذه الايام ، ناس معه وناس عليه وقال ان ماسح أحذية دافع عنه ، وكتب في هذه الجريدة : حنا كان اجير حلاق وانا ماسح احذية ... وبعد أن قرأت لها الخبر أعطتني ربع ليرة ، وطلبت مني أن اكتب لها كم كلمة زيادة ، فقلت لها تفضلي نصي علي .

ياولدي الحبيب إما هذه الاخبار التي اسمعها عنك ؟ لاتأخذ وتعط كثيراً مع الناس ، المثل يقول « ياجبل ما يهزك ريح » . أنا لا اعرف ماذا تكتب في القصص ، ولكن الناس يحبون قصصك ويقولون انها قصصهم . ويدعون لك بطول العمر ، وهذا يكفي ، فالعود ، يا ابني ، لايحن عليه غير قشره ، وانت حن على الجميع ، حب الجميع ، وخاصة الفقراء ، ملح الارض . واذا كنت في ضيق او كدر ارجع الى امك وحط راسك على صدرها . من عشرين سنة وانت بعيد عن البيت ، مرة في بلاد « بره » ومرة في بلاد « جوه » ولا اسمع اخبارك إلا من الناس والجرايد ، ولا أرى صورتك إلا فيها ، وأمس ندهتني جارتنا من

---

(١) بيت من قصة الزير سالم . وصية الزير الى الجرو ابن اخيه كليب ، بسبب ماذاق الزير من أذى على يد الجليلة ، امرأة كليب ، وشقيقة جساس قاتل ابيه .

الشباك : يا أم حنا ! طلع ابنك في التلفزيون ، ور كضت على الدرج ، صرت أدب أنا العجوز في السبعين ، على يدي ورجلي ، فلما وصلت لم أجدك، وانتظرت حتى آخر السهرة فلم تطلع ، فالله يرضى عليك يا ابني ، اذا كنت راح تطلع مرة ثانية طوّل بالك حتى ألحق وأراك !

كذلك أخبرك ان المختار[1] عاتب عليك ، لأنك قلت عن بنته في القصة أن رجليها مثل قصب الذرة ، هذا عيب ولا يجوز ، واذا بارت البنت تكون خطيئتها في رقبتك ، ومريم السودا [2] تحبك ، فلماذا بشعتها في عيني زوجها نايف الفحل[3] ؟ وأمس دق الباب رجل طويل أحمر العينين ، اسمه خليل العريان [4] وسألني عنك ، فقلت له ابني في بلاد الشام ، فقال : ابنك كتب عني ، وأنا عندي قصص كثيرة مفيدة له ، فحين يأتي ابعثي خلفي. وأعطاني عنوانه وصورته وهو شاب بشاربين مثل عنتر ، من اربعين سنة ، فأخذتها وحفظتها مع العنوان لحين حضورك . وابن العجان يقول ان الطروسي [5] جده ، وكل صياد وبحار يقول انه قريبه ، وأنا محتارة ! ومن طرف المحافظ والدعاية جاء رجال وسألوا عنك ، ومعهم رجل غريب يتكلم العربية بشكل أعوج ، قال انه يترجم قصتك ، ورأى البيت وسلم على والدك وعلي ، وأنا كنت في ثياب البيت وذبت من الخجل ، لماذا لم تخبرنا سلفاً ؟ وهل جعلتنا فرجة في آخر عمرنا ياولدي ؟ واحزر من دلهم على بيتنا ؟ « جيفا » المجنون ، وكان عندنا فارس المسطول [6] ، ونحن نقول له «فارس الحمصي» فقال :بكرا ينشرونكم في الجرايد، فيا خجلتنا من الجيران إذا فعلوا.

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٥) و(٦) اسماء الشخصيات في روايتي «المصابيح الزرق» و « الشراع والعاصفة » .

نختم بالسلام الى الجميع ، فرداً فرداً ، وخاصة الى صديقك الدكتور الذي زارنا في الصيف ، وكلف خاطره بمعالجة الحارة كلها ، والحمد لله كانت يده خفيفة على المرضى ، فلم يمت منهم سوى كاترين العرجا ، وجارنا شحادة ، وزريق الفحام ، وبنت أبو حسين ، وقالوا في الحارة بعد سفره انه دكتور بارع ، لأن الدواء الذي وصفه لرمزة بنت مخول غير موجود في كل صيدليات البلد ، وحتى الذين ماتوا ، ماتوا مرتاحين ، لانه لم يأخذ منهم أجرة ، ولأنه « دسدسهم »[1] بوجدان ، وأنا شفيت على يده والحمد لله ، وآمنت به ، والمثل يقول : « آمن بالحجر تبرأ » ، ومع ذلك اداري حالي ، فلا أقطع البخور والصلاة في شباط ولا اسمح لوالدك بسب الدين طوال هذا الشهر المبارك ، و ...

صح (ملاحظة من بنت اختك هيفا) ياخالي لاتؤاخذني لأني قطعت مكتوب ستي . رديت لها ربع الليرة واستعفيت . آخ ياخالي كم تعذبني ستي بمكاتيبها وكم تضربني لأجلها . فالرجاء منك ان لا تكثر من المكاتيب ولا تتحدث في الصحف ، لأن المصيبة تقع في رأسي ورأس صابا بن مطانيوس ، وفارس الحمصي اذا لحقته قبل أن « ينسطل » . فهي تضع المكتوب في صدرها ، وتحمل الجريدة في يدها ، وتدور علينا ، ولا تكتفي بقراءة واحدة ولا اثنتين ، وأنت تعرف أن سمع ستي خفيف ، وعلينا أن نصرخ ، لأن ستي تتقمط بعصبة فوق المنديل ، وتلبس في الشتاء ثلاث تنورات وقميصين و كنزتين وجاكيت ، فتصير مثل الطابة الكبيرة ، وصوتي يضيع ولا يصل الى أذنيها . وكل هذا يهون عند كتابة الجواب ، وهذه المصيبة تقع علي وحدي .

---

(١) الدسوسة أو الدسدسة ، حركة انامل الطبيب وهو يكشف على المريض ويدس أنحاء جسمه ، وكلما زاد الطبيب منها كان بارعاً وصاحب وجدان في نظر الفقراء من المرضى .

صح ، توصيك ستي أن تكتب لأم كامـــل وأبو فهمي برامج اذاعية « فالحارة كلها تسمعها وتحبها ، وتقول لك : لماذا لا تمثل أنت معهم حتى تسمع صوتك ؟

صح ، طلبت ستي من جدي أن ينص الك كلمتين فرفض ، ومن فرحي قمت الى جدي وقبّلته !

صح ، في الختام تغني لك ستي هذا الموّال :

اكتب المكاتيب ودموع العين تمحيها
وأنا ناطرة الدروب ومالي من يودّيها
بالله يا كاتب المكاتيب فسر لي معانيهـا
وسلّم على الشام وأحباب لنـا فيها

واسلم لأمك المشتاقة مريانا

وقفة على أطلال الكرامة

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

« امرؤ القيس »

د. أحمد سليمان الأحمد

أيتها المدينةُ ـ الطلَلْ

لستُ امرأَ القيسِ لأستوقفَ مَنْ مَرّ هنا على عَجَلْ

وأنزحَ المُقَلْ

على تذكُّرِ الحبيب والطلولْ

لستُ امرأَ القيسِ أنا.. ولستِ أنتِ حَوْملاً، أو «الدَخولْ»

لَمْ تَنْسجِ السَمُومْ

أكفانكِ الحُمْرَ.. ولم تَنْعبْ على الرُسومْ

---

(١) كتبت هذه القصيدة في زيارة للمدينة الباسلة المهدمة « الكرامة »، خلال عيد الفطر في كانون الاول ١٩٦٩، بدعوة من القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أسرابُ بومْ
تغيَّرَ الزمانُ ، والرجالُ ، والهمومْ
ولمْ يَزلْ فارسُكَ القديمْ
يُسنِدُ للرمح الجبينَ دامياً ، يُعانِقُ الرَّدى على جوادِهِ ،
يَظل رمْزاً للتحدي .. آهِ يا تمثالنا المحطومْ
تطاولَ الليلُ ولم تعبر سماءنا النجومْ
ولم تزلْ تغفو البروقُ في مطارِفِ الغيومْ
ياأيُّها الواقِفُ ، والأطلالُ في عينيكَ والوجومْ
وفوقكَ الوحشُ الخُرافي الذي يَحُومْ
.. لم يَعُدْ خرافة تعيشُ في مضارِبِ القبيلَهْ
« الكرامةُ » القتيلَهْ
ماتُ فِتنَت .. وماانطوتْ على رِفاتِها حفرهْ
لكنَّها تكشَّفتْ عن الحقيقةِ الكبيرهْ
عن الفدائي ، فتى العَشيرهْ
عادَ .. فما آنس مِنْها ضجة الحياة أو نغمتَها الأثيرهْ
ولا العَذارى الرافلاتِ في غلائلِ الصباحْ
ولا الميادينَ التي تموجُ بالخيولِ كالرياحْ
وبها كماة تقرعُ الرماحْ
عُدتَ .. فهلْ خفَّ إلى لُقياكَ غيرُ الريح .. والاشباحْ
تَرودُ في الشوارع المهجورهْ
توجزُ مأساةَ الرجالِ والديارْ

قُبورُنا المحفوره

وما أهلُنا فوقَها التُرابَ والأحجار

سَوْفَ تَظَلُ هكذا ، فاغرة ، تصرخ : أين الثار

يَصيحُ فوقها الصدى : اسقُوني ، تصيحُ هامَةُ الصحراء[1]

تصيحُ حتى يسقُطَ الشِتاء

مُحترقاً أمامَ شمسِكِ الحمْراء

يا غابة مفجوعَه

جُذوعُها المقطوعَه

تَصْنَعُ في النَهرِ مَخاضةً ليَعبُرَ الرجالُ .. والرصاصُ في الطليعَه

(١) الصدى أو الهامة ، طائر أسطوري يقف على قبر القتيل ويظل يزقو حتى يؤخذ بثأره .

سرّي أنا الليل

نذير الحسامي

سالتني من أنا في زحمة الصور … ياسامراً غاب عن كأسي به قمري
سألتني وجناح الليل ينشرني … جرحاً على الآه في سجعي وفي سمري!
ماذا سؤالك عن كبد ترتله … من الدجى شفة لمياء بالشرر؟
إن كنت تسأل عن سرّي فبل قدحي … ما الوهج في الخمر او ما اللمح في السُكْر؟
تجرّدت من تهاويل الضحى سُبُلي … وازّينت بتلاوين الدجى سُرُري!
وضُمّخ الكأس من راحٍ معطّرةٍ … عنقودها أنضجته الشمس في سحري!
أحجيّة الليل أعيا الصبح فضّ فمي … إلا على رنّة الأشجان من وتري
أيعزف الصبحُ في نايي وتنفخني … دوامةُ الليل في ناي من الذكر؟
سرّي أنا الليل والدنيا تبدّده … يضيق عن لمّه ياويح لي عُمُري
سرّي أنا التفّ بالرؤيا يعانقها … وراح يبرق مطوياً كمنتشر!
لا الورق في الروض تروي للضحى نبئي … ولا طيورُ الدجى تأتي على خبري!

ولاينمّ الشذا الفواح عن زهري   ولايحدّث عن شهدي وعن ثمري!
ذكري مع الشاربي حلواً يطيّبني   ياشاربي علقماً هل أنت مدّكري؟!
ياسامراً للهوى المسفوح غيهبُه   على غواية سمّار الخنا الكثُر
إن رحت تسأل عن وجدي وعن شغفي   فسَل وراء خُمار الكأس عن خدري.
مع اعتكار المنى في الصبح مرتحَلي   وفي صحارى الهوى باللهوى سفري!
أسلسل الآل أنهاراً يشنّفني   خريرها في هجير ضاحك النُذُر!
وأكتسي الغار من شوك كساه دمي   غاراً وفتّقه بالمجتَنى مطري!
الأفقُ ضربةُ جنحي والمحال مدى   همي وفجرُ جراحي ماليء نظري.
صحبتُ غاشية الأحلام ألبسها   زهواً وتلبسني حتى غدت قدري!
دع السكارى وأوطار الكؤوس ولا   تسأل لياليّ ما كأسي وماوطري؟
خلّ السؤال لدُنيام وأصغ إلى   دنياي تصدح خلف السمع والبصر

تاريخ الكفاح العمالي العالمي

رشيد الرشيدي

ان دراسة تاريخ الحركة العمالية في بلد ما تعني دراسة تاريخ نضاله الشعبي الحقيقي. ولا يزال نضال القوى العاملة في كل بلد من بلدان العالم يشكل العمود الفقري والمحور الاساسي للتحولات الاجتماعية وبناء الاشتراكية. وكل مراقب سياسي بات يدرك بأن التحويل الاشتراكي مرتبط بالنضال الجماهيري ارتباطاً متلاحماً. وما ذلك الا لأن تضامن قوى الشعب العاملة هو خطوة البدء التي تتبناها جميع النظريات الاشتراكية وترتكز عليها المفاهيم القومية المعاصرة

ومنذ عام ١٨٠٠ أدرك المفكرون الاقتصاديون على اختلاف مذاهبهم أهمية القضية العمالية وبعدها الانساني وأثرها على مرافق الحياة العامة ، فتنادوا الى ضرورة حل مشاكلها على الصعيد الدولي . وكان للأزمات الاقتصادية أثرها الدافع أيضاً للدعوة الى تدخل الحكومات في الحياة الاقتصادية . فانبرى (سيسموندي) ينتقد بعنف مبدأ الحرية الاقتصادية ، وطالب بتدخل الدولة لمنح العمال حرية التجمع وتكوين النقابات وإعلان يوم الاحد عطلة اسبوعية واصدار تشريعات الضمانات المبنية بالزام صاحب العمل بدفع اعانات في حالات المرض والبطالة والشيخوخة . ثم رفع (سان سيمون) شعار الاقتصاد الموجه . وتبعه في ذلك (السانسيمونيون وكارل رودبرتوس) فطالب هؤلاء بتنظيم الحياة الاقتصادية على اسس علمية شرحها كل من (بازار) و (أنفانتان) اللذين هاجما الملكية الفردية والارث وطالبا بأن تكون الدولة هي الوارثة والمالكة والمسيرة للحركة الاقتصادية حسب قاعدتين :

١ — قاعدة الانتاج : بأن تعطي الدولة كل فرد كمية من وسائل الانتاج حسب امكانياته وكفاءته .

٢ — قاعدة التوزيع : لكل فرد حسب عمله .

وقد غدت هاتان القاعدتان الشعار او النهج الذي تلتف حوله الجماهير الشعبية النابهة ، وتكافح من أجل تحقيقه للخلاص من ضنك العيش بسبب لا انسانية النظام الاقتصادي الرأسمالي .

ومع مسار الزمن تتالى المفكرون الاشتراكيون يعالجون القضية . فطالب الاقتصادي (روبرت اوين) مؤتمر الحلف المقدس المنعقد عام ١٨١٥ بضرورة معالجة القضية العمالية مع الابحاث السياسية في المؤتمر . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، فالحكومات المؤتمرة وقتئذ كانت تمثل اقصى الرجعية . لذلك يئس « اوين » من الحكومات ونادى هو و « فورييه » بضرورة تضامن الجماهير الكادحة من أجل تحقيق مصالحها وحريتها ، وطالب اوين بالغاء فكرة الربح كما طالب فورييه بجعل العمل ممتعاً . ثم دخل المعركة الاقتصادي (برودون) وتنكب سلاح الانتقاد لهدم النظام الرأسمالي ، فطالب بالغاء الدولة وحق الملكية .

كان الكفاح العمالي يزداد عنفاً يوماً بعد يوم في جميع اقطار اوروبا ، ترفده وتغذيه الآراء الاقتصادية الاشتراكية وتقف في وجه الطبقة الحاكمة والفئات المرتزقة

والافكار الرجعية . وقد كتب الاقتصادي السياسي لوفين عام ١٨٣٨ خطابا الى طبقة العمال في اوروبا اقترح فيه انشاء منظمة دولية للعمال . ومما قاله : « يازملائنا في انتاج الثروات .. اننا نرى أن ظالمينا قد اتحدوا ضدنا ، فلم لانتحد نحن أيضاً في حماس مقدس لاظهار قساوة الاستبداد وما ينالنا بسبب ذلك من بؤس ويأس ؟ » .

احتدم الصراع الطبقي بين العمل ورأس المال في معظم الدول الصناعية وبلغ أشده في فرنسا عامي ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، فحدثت الصدامات الدامية وحمل العمال الثوريون لواء الشعارات التالية :

حق العمل وضمانه وتنظيمه – حق اقامة الجمعيات العمالية – الغاء استغلال الانسان للانسان . وكانت أهم الاهداف العمالية التي طالبت بها ثورة شباط ١٩٤٨ هي حق العمل الذي ظل شعاراً لنضال العمال فيما بعد . حتى أن برودون قال بعد الثورة المذكورة : « أعطوني حق العمل ، أتنازل لكم عن حق الملكية » .

وبنتيجة ضغط عمال باريس اضطرت حكومة الجمهورية الفرنسية المؤقتة أن تتعهد بضمان حق العمل للراغبين فيه . ثم أصدرت الحكومة مرسوماً في اليوم التالي لتعهدها يقضي بانشاء المصانع الوطنية .

وفي بريطانيا دعا (جون ستيوارت ميل) الى القيام بعملية امتصاص البروليتاريا التي تعمل بالاجرة عن طريق الجمعيات التعاونية الانتاجية ، وطالب بتأميم ريع الارض عن طريق الضرائب والحد من التفاوت في الثروات بواسطة تنظيم قوانين الارث .

في تلك الفترة بدأت التحليلات العلمية للنظام الرأسمالي وتناقضاته تأخذ طريقها الى افكار الطبقة العاملة . فقد بدأ كارل ماركس بتحليل الصراعات الطبقية وأوضح أن الرأسمالية تخون الانسان وتنكر طبيعته الحقيقية ، وان حرية الانسان وخلاصه من الاستغلال والاعداد لحياة متطورة ، يستلزم قيام اتحاد عمال العالم ، وتطبيق الاشتراكية العلمية . وكان الى جواره فكراً وسعياً العالم الاقتصادي فريديريك انجلز .

وفي عام ١٨٦٢ تأسست في لندن الجمعية العالمية الاولى للعمال بتأثير الافكار الاشتراكية البرودونية والماركسية . واعلنت هذه الجمعية ان تحرير العمال يجب أن يكون من عمل العمال أنفسهم ودعت الى دراسة القضايا العمالية على نطاق دولي واستمرت في نضالها حتى عام ١٨٧٠ . ومما دعى الى زوال هذه المؤسسة الصراعات المذهبية وتصادم كارل ماركس مع باكونين الفوضوي . وعلى سبيل العرض ان مطالب هذه

الجمعية الدولية العمالية بقيت في حدود الجهات التي تدعو الى تحرير العمال . فأصدرت نداءات ساهمت في تهيئة الرأي العام الدولي لقبول الفكرة وتأييدها . فبادرت الحكومة السويسرية عام ١٨٨١ الى الدعوة لمؤتمر دولي يعقد في جنيف للبحث في وضع تشريع دولي للعمل . وقد انعقد المؤتمر ولكن في حدود ضيقة ، اذ رفضت أكثر الدول الاشتراك في المؤتمر كما أن بعضها علن معارضته نظراً لأن التمسك بمبادىء الحرية الاقتصادية كان لبوس ذلك العهد .

استمرت الحركات العمالية في نضالها ، وقد أدى الكفاح في فرنسا الى صدور قانون حرية الجمعيات ، مما أتاح للعمال هناك الاجتماع الى بعضهم والاتصال بالمؤسسات العمالية في كافة الدول الاوروبية من أجل توحيد حركة النضال . وتكونت في باريس المنظمة العمالية الدولية الثانية (١٨٨٩ - ١٩١٤) إثر مؤتمر أقر مساندة الحركة الداعية الى قصر ساعات العمل على ثماني ساعات ، وقد اعلن ذلك في اليوم الاول من أيار عام ١٨٩٠ وهو اليوم الذي أصبح عيداً للعمال .

توسعت الشقة بين الجماهير الكادحة والطبقات الحاكمة في الدول الاوروبية . واشتد الصراع وازداد الوعي الطبقي لدى العمال ، فعقدت ثلاثة مؤتمرات عمالية محلية الاول في زوريخ عام ١٨٩٧ والثاني عام ١٨٩٨ في بروكسل والثالث في باريس عام ١٩٠٠ . وكانت نتيجة المؤتمرات الثلاثة تأسيس الجمعية الدولية القانونية لحماية العمال التي ضمت عدداً من المختصين بشؤون العمل اضافة الى الاقتصاديين ورجال السياسة . وقد نجحت الجمعية المذكورة في حمل الحكومة السويسرية على تبني الدعوة الى مؤتمرين عقدا في برن عام ١٩٠٥ و ١٩٠٦ نتج عنها اتفاقان دوليان يقضي الاول بمنع تشغيل النساء ليلاً في مجالات الصناعة . ويقضي الثاني بمنع استعمال الفوسفور الأبيض في صناعة الكبريت بسبب الأضرار التي يحدثها في العمال . وقد عقدت معاهدات ثنائية بين أكثر الدول الاعضاء هدفها رعاية مصالح عمال احدى الدولتين لدى الثانية والى جانب ذلك جرى في مدينة شتوتغارت عام ١٩٠٢ اجتماع نقابي حضرته النقابات البريطانية والالمانية والفرنسية والاسكندنافية ، وتأسس بنتيجة هذا الاجتماع المكتب المركزي الدولي للنقابات الوطنية ، الذي أضحى يضم عام ١٩١٣ (١٩) منظمة نقابية ينتسب اليها ستة ملايين عضواً ، واتخذ اسماً جديداً هو الاتحاد النقابي الدولي .

وتألفت في فرنسا الاتحادات الوطنية العمالية في بدء القرن العشرين . وقد شغلت هذه الاتحادات العامة عن هدفها السياسي بقضايا تنسيق الأجهزة المتصلة بمصالحها . أما في انكلترا فقد تأسس حزب العمال عام ١٨٩٣ – ١٩٠٦ وسمح له بممارسة عمله السياسي على مستوى البلاد جميعاً عام ١٩١٣ واستطاع رعاية مصالح الطبقة العاملة حيث أوجد حداً أدنى للاجور يتفق مع مستوى معين للحياة . ولكنه لم يتبن الايديولوجية الاشتراكية في عمله ، لذلك بقي في حدود الحزب السياسي التقليدي . وفي روسيا القيصرية تسلم الحزب الشيوعي بقيادة لينين دفة النضال . ووضعت الخطة لاستلام الطبقة العاملة الحكم .

وتشكلت في المانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ثلاثة أنواع من النقابات (الماركسية والاصلاحية والمسيحية) وكلها كانت تهدف الى زيادة الاجور ودعم حرية الاضراب وتخفيض ساعات العمل وايجاد تشريع يحمي العمال. وكانت الجماهير الكادحة في قارتي آسيا وافريقيا ترزح تحت عبء الاستعمار من جهة والطبقات الانتهازية من شعوبها من جهة أخرى .

اشتعلت نار الحرب العالمية الاولى وكانت آثارها وبالاً على حياة العمال والجماهير الكادحة فوسعت الهوة بين طبقتي المجتمعات ، واحتدم الصراع لكن أبعاده وآثاره اختلفت بين دولة وأخرى. وعلى الصعيد الدولي طالبت اتحادات العمال في عدد من الدول بأن يرافق مؤتمر الصلح الذي سينهي حالة الحرب مؤتمر دولي للعمال. فعقدت نقابات العمال في دول الحلفاء مؤتمراً في مدينة ليدس بانكلترا. ثم عقدت نقابات العمال بمجموع دول الاتفاق عام ١٩١٧ مؤتمراً آخر وذلك في سويسرا. ونتيجة النضال المتواصل من أجل الفكرة ، وصمود الموقف فقد تضمنت معاهدات الصلح (فرساي – تريانون – سان جرمان – نويلي) فصولاً خاصة بمواضيع العمل . وبموجب الفصل الثالث عشر من معاهدة فرساي تأسست منظمة العمل الدولية. وقد سمي هذا الفصل فيما بعد بدستور المنظمة . وقد جاء في مقدمة النص :

« لما كان السلام العالمي الدائم لا يمكن أن يقوم الا على أساس العدالة الاجتماعية ، وكانت لا تزال في العالم شروط للعمل تحمل الكثير من الناس الظلم والبؤس وتثير استياءهم الذي يعرض السلام للخطر ، وكان من الواجب تحسين هذه الشروط كتنظيم ساعات العمل وتحديد حدها الاقصى واستخدام اليد العاملة ومكافحة البطالة وضمان أجر واف وحماية الاطفال والنساء وتأمين تعويضات العجز والشيخوخة والدفاع عن مصالح العمال خارج اوطانهم وتأييد مبدأ الحرية النقابية وتنظيم التعليم المهني والفني وكل تدبير يؤول الى ذلك ، وكان عدم تبني الامم وضع نظام انساني للعمل يعرقل جهود الامم الاخرى الراغبة في تحسين مصير العمال في بلادها لذلك فان موقعي هذه المعاهدة تحدوهم عاطفة العدالة والانسانية والرغبة في ضمان سلام عالمي دائم اتفقوا على ما يلي : (نص الدستور) » .

وقد ربطت المنظمة قانونياً بعصبة الامم ارتباطاً وثيقاً . الا أن تطور الاوضاع بعد تأسيس المنظمة سار في طريق انفصالها عن العصبة . وأعطيت للفصول المتعلقة بالعمال ، والواردة في نصوص معاهدة الصلح التي مر ذكرها ، ارقام خاصة . ومن الخطوات الايجابية التي حققتها منظمة العمل الدولية في فترة ما بين الحربين تبنيها لفكرة فرض حد أدنى للاجور ، وذلك بموجب اتفاقية العمل الدولية عام ١٩٣٨ .

خلال فترة الحرب الاولى توقفت النشاطات العمالية . فقد سيقت الطبقة العاملة الى ساحات القتال . وما أن وضعت الحرب اوزارها او كادت حتى بدأ النشاط العمالي يظهر في الدول الاوربية كافة . ففي فرنسا عقد المؤتمر النقابي عام ١٩١٨ اجتماعاً وقرر اعادة تنظيم اتحاد النقابات العام للعمل . وطالبت لجنة المؤتمر اعادة كل الحريات الدستورية. وقد حدثت عدة اضرابات عام ١٩٢٠ تطالب بالتأميمات مما ادى الى حدوث الانقسامات . ثم تألف اتحاد النقابات الموحد للعمل عام ١٩٢١ ، انضم اليه الشيوعيون والنقابيون المعتدلون . ووجد الى جانب هذا الاتحاد ، اتحاد النقابات الفرنسي للعمال المسيحيين . وفي عام ١٩٣٦ اندمج الاتحادان ، واصبحت خطة سعيها : تأميم الصناعات الاساسية ومكافحة البطالة .

أما بريطانيا فقد أدى اشتراكها في الحرب الى ارتفاع تكاليف المعيشة . فتسبب عن ذلك اضرابات وصراعات عامة فيما بين عامي ١٩١٦ – ١٩١٨ ، وكانت قد توطدت الحركة النقابية . لكن أصحاب العمل ظلوا يفرضون مصالحهم. وقد ثبت ذلك عام ١٩٢٠ حينما استمر عمال مناجم الفحم في اضرابهم خمسة أشهر ثم عادوا الى عملهم حسب شروط أصحاب العمل . وفي عام ١٩٢٧ تقهقرت الحركة العمالية في بريطانيا على اثر صدور قانون جديد يمنع الاضراب غير المشروع . وبموجبه أصبح الاضراب العام جريمة . وفي عام ١٩٣٤ بدأت الحركة تقوى على أثر زيادة الارتباط بين الاتحادات العامة وحزب العمال .

وبالنسبة لالمانيا بعد الحرب الاولى انطلقت الحركة العمالية فيها بشكل جديد بعد عام ١٩١٨ ، فتشكل عام ١٩١٩ اتحاد عمالي عام استطاع أن يفرض وزنه في تحسين ظروف العمل. كما وان النقابات المتحررة والمسيحية انضمت إلى اتحاد ثان ، وكان الى جانب ذلك نقابات مستقلة وأخرى شيوعية ، ولكنها قليلة العدد . وهكذا تمركز التنظيم النقابي حتى عام ١٩٣٣ حيث ربطت الاتحادات النقابية بالحكومة .

وبالنسبة لمجمل أوروبا الوسطى فقد عقد الاتحاد النقابي الدولي الذي مر ذكره اجتماعا في لاهاي عام ١٩٢٠ ، ضم ممثلين عن النقابات المسيحية في المانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وايطاليا واسبانيا وسويسرا وبلجيكا والبلاد المنخفضة وفرنسا، واتخذ مقررات بدعم تضامن الحركة النقابية المسيحية .

وفي الاتحاد السوفييتي اعتمد النظام الاشتراكي الذي تأسس عام ١٩١٧ على نظرية ديكتاتورية العمال. وقد نظمت النقابات على أساس الصناعة لا المهنة، والنقابات جميعها ربطت باتحاد مركزي قائد . ومنذ عام ١٩٣٤ نقلت مراكز اللجان المركزية للنقابات من موسكو الى مراكز الانتاج تطبيقاً لشعار جابهوا الانتاج .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية وانهارت معاهدات الصلح بين الدول أبقت منظمة العمل الدولية على نفسها واعتبرت دستورها منفصلا عن العصبة .

لقد عطلت الحرب العالمية الثانية عمل المنظمة طيلة فترة استمرارها . كما وان آثارها على الطبقات العاملة وخاصة في اوروبا كان غاية في الشدة . فقد تلقت الجماهير الكادحة في القارة الأوروبية وخاصة الدول الشرقية والمانيا أسوأ النتائج، مما هيأ الظروف لقيام الثورات الاشتراكية في عدد من الدول الاوروبية بعد أن عانت أقصى المعاناة . فتأسست بذلك الديمقراطيات الشعبية الاشتراكية في دول أوروبا الشرقية ، بقيادة الطبقة العاملة . كما قويت الاحزاب الشيوعية والاشتراكية والعمالية في بقية الدول الأوروبية ، ونشأت الاحزاب الشيوعية والاشتراكية في سائر دول العالم الثالث .

وفي عام ١٩٤٥ اشتركت جميع الاتحادات العمالية الكبرى بتكوين الاتحاد العالمي للنقابات ، باستثناء الاتحاد الامريكي للعمال، الذي رفض الاشتراك فيه لوجود النقابات السوفيتية وهو يضم حالياً ما يقرب من (١٤٠) مليون عضو ، ويقتصر على نقابات البلدان الاشتراكية الديمقراطية الشعبية والاتحادات العمالية التقدمية في دول العالم الثالث. وقد انتقل مركزه الرئيسي من باريس الى فيينا اثر انسحاب نقابات الدول الرأسمالية منه . وأخيراً ومنذ ١٩٥٥ أصبح مركزه الرئيسي براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا .

وفي عام ١٩٤٩ اثر انشقاق اتحادات عمال البلدان الرأسمالية عن الاتحاد العالمي للنقابات بتأثير الضغط الامريكي تكون الاتحاد الدولي الحر للعمال ، واتخذ مقراً له في

بروكسل ،وضم اتحادات عمال بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وبلجيكا والدول الاسكندنافية والاتحادات العمالية التي تسير في فلك السياسة المعاصرة للرأسمالية . ويقدر عدد أعضائه بـ (٧٠) مليون عضو . وقد نجح هذا الاتحاد في ربط اتحاد النقابات المسيحية به .

ففي وطننا العربي تكونت النقابات العمالية الأولى بتأثير الثقافة الاوروبية الاشتراكية، ونتيجة لوعي العمال ظروفهم المعاشية القاسية . وقد نشأت النقابات العمالية العربية على صعيد قطري معزولة عن بعضها ، بسبب التمزق القومي ،غير أنها تميزت بنهجها النضالي على المستويين الثقافي والسياسي، فكانت أهدافها تبتدىء من المطالبة بزيادة الأجور وتقليص عدد ساعات العمل،وتصل الى الشعارات اليسارية (خبز وسلم وحرية). وعلى هذا الاساس نشأت الحركة النقابية العمالية في الأقطار العربية . فتكونت أول نقابة عمالية في مصر عام ١٨٩٩ لعمال الدخان والسجائر ،وتأسس اتحاد عمال السودان عام ١٩١٤. وفي أيار من عام ١٩٢٥ تألفت جمعية العمال العرب الفلسطينيين والنضال العمالي في العراق عام ١٩٣٥ . أما النقابات العمالية في المغرب العربي فتكونت كامتداد للتنظيمات النقابية الفرنسية اعتباراً من عام ١٩٣٠ . وفي عام ١٩٥٠ تأسس الاتحاد المغربي للشغل . وفي عام ١٩٥٦ تم توحيد نقابات العمال الجزائريين في اتحاد عام واحد ، كما تم في نفس العام توحيد الخمس والعشرين نقابة في ست نقابات عامة في القطر اليمني الجنوبي . وفي قطرنا العربي السوري تأسست أول نقابة عمالية عام ١٩٢٥ ضمت عمال التريكو في دمشق . وتتالى بعد ذلك تكوين النقابات العمالية لكل مهنة . وفي آذار ١٩٣٨ تداعى عمال جميع محافظات القطر العربي السوري الى مؤتمر عام انبثق عنه مولد اول اتحاد عام لنقابات العمال في سورية . وقد مارس عمال قطرنا وعدد من الاقطار العربية الأخرى دوراً بطولياً ضد حلف بغداد وضد مشروع ايزنهاور ، كما قاموا بنسف أنابيب بترول شركة نفط العراق أثناء العدوان الثلاثي على مصر .

بعد الاستقلال الوطني لعدد من الاقطار العربية ، تجاوزت الحركة النقابية للعمال العرب (من الناحية السياسية) النضال الوطني الى نضال قومي،فتداعت الى دمشق بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٥٥ المنظمات النقابية التالية : المؤتمر الدائم لنقابات العمال في جمهورية مصر – الاتحاد العام لنقابات العمال في سورية – الاتحاد التقدمي لنقابات العمال بدمشق – الاتحاد العام الليبي للعمال – اتحاد نقابات العمال المستقلة في الجمهورية اللبنانية – رابطة نقابات العمال والمستخدمين في لبنان الشمالي – اتحاد نقابات العمال في المملكة الاردنية الهاشمية .

عقدت هذه المنظمات النقابية العالية مؤتمرها التاريخي ، وأعلنت في نهايته قيام الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب الذي يضم أربعة ملايين عامل موزعين في ثلاثة عشر قطرا .

وفي السنوات الاخيرة نشط الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب في مسؤولياته القومية بجابهة للهجمة الامبريالية الصهيونية على الأمة العربية ، فعقد في دمشق مؤتمراً في أيار من عام ١٩٦٧ ، وعقد مؤتمراً ثانياً في بغداد خلال تموز من ذات العام . وبنتيجة الاصوات التي ارتفعت في كلا المؤتمرين ، اتخذ مجلسه المركزي في المؤتمر الثاني القرار التالي :

« ان المجلس المركزي للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ، في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الأمة العربية **يرى ان الوقت قد حان لاقامة الوحـــدة بين الدول العربية المتحررة ، ويناشد المسؤولين الشروع في أقرب وقت بدراسة الترتيبات والاجراءات التي من شأنها أن تحقق هذه الوحدة التي هي مطمح كل عربي ، والتي** يعتبرها العمال العرب انها وحدها كفيلة **بالدفاع عن المكاسب الثورية العربية ، ومقاومة الصهيونية والاستعمار . »**

أما في الشرق الاقصى فقد نهضت الصين من كبوتها وتأسست فيها أكبر دولة بروليتارية اشتراكية في العالم ، فأضافت الى الكفاح العمالي العالمي نجاحاً ذا أهمية واضحة .

وعلى نطاق مجمل بلاد العالم الثالث فقد بدأت حركات التحرر الوطني تشق طريقها لتحطيم قيود الاستعمار ولتهيء الظروف اللائقة لقيام الجماهير الشعبية بالثورة الاشتراكية . ومن الملاحظ أن كلمة بروليتاريا في هذه الدول (العالم الثالث) اضحت تعني سائر الجماهير الشعبية الكادحة لعدة أسباب واقعية :

١ – عدم وجود طبقة عمالية متميزة كبيرة ، نتيجة التخلف الصناعي .

٢ – الفلاحون فيها يشكلون ٨٠٪ من السكان ، وهم أكثر شقاء من العمال .

٣ – نسبة كبيرة من ابنـــاء المدن هم من العمال والجنود وصغار الموظفين والكسبة الخ .... يعانون من الفقر ، نتيجة الغزو الامبريالي الذي يسرق مواردهم .

وعلى سبيل العرض نذكر أن صافي ماتربحه الشركات الاستعمارية من البترول العربي هو في حدود (٢٠٠٠) مليون دولار سنويا .

نعود الى الصعيد الدولي فنجد منظمة العمل الدولية قد عادت الى نشاطها بعد

الحرب فعقدت المؤتمرات واصدرت الاتفاقات واتخذت التوصيات . وفي عام ١٩٤٦ اجتمع ممثلو هيئة الأمم المتحدة ومنظمة العمل الدولية وعقدوا اتفاقاً اعتبرت المنظمة بموجبه احدى المؤسسات المرتبطة بالمجلس الاقتصادي والاجتماعي . وقد وافق مؤتمر العمل الدولي على هذا الاتفاق وأبرمه . بلغ عدد الدول المنتسبة إلى المنظمة في نهاية عام ١٩٦٨ (١١٨) دولة ، وهي تعقد كل عام مؤتمراً يشترك فيه ممثلون عن العمال وعن ارباب العمل بمقدار النصف بالتساوي ، وممثلون عن الحكومات يساوي النصف الآخر من عدد اعضاء المؤتمر ، ليبحثوا شؤون تحسين مستوى العمل والعمال . وقد بلغ مااتخذه المؤتمر العام في هذا الشأن حتى نهاية عام ١٩٦٨ : ١٢٨ اتفاقية و ١٣٢ توصية تشكل في مجموعها قانون العمل الدولي .

ان فعالية منظمة العمل الدولية في خدمة الطبقة العاملة ليست في المستوى المطلوب بسبب اتسامها بالصبغة الرسمية الوظيفية أكثر من اتسامها بالصبغة النقابية ، وبسبب تأثرها بالتيارات السياسية الامبريالية . غير انها تشكل ميداناً للكفاح العمالي الدولي .

في الأدب البولوني الحديث

د. صالح خلف الحمارنه

ليس من السهل تقسيم ادوار الادب الى مراحل منفصلة ، اذان ادب كل مرحلة يتداخل مع أدب المرحلة التي تسبقه ، وهو بالتالي امتداد لها .

ولقد اعتاد النقاد ان يؤرخوا للادب البولوني الحديث بسنة ١٩١٨ ، هذه السنة التي استقلت فيها بولونيا بعد التجزئة والحكم الاجنبي الذي امتد ما بين سنوات ١٧٧٢ — ١٩١٨ . كانت بولونيا اثناء ذلك مقسمة ما بين ثلاث دول مجاورة ،هي روسيا القيصرية والنمسا وبروسيا الالمانية . ولقد كان هم الادب الاول في هذه الحقبة الطويلة والمرة ،هو تذكير الشعب بانه امة واحدة لها تاريخها ولغتها وتراثها وتقاليدها ومميزاتها الكاملة ،وانها —كأمة— قد غلبت على أمرها فجزئت بين جيران كبار عتاة . لذا فصورة الشاعر النبي،الشاعر الحالم بمستقبل الوطن النير ، الشاعر النذير — ينذر أمته ويستنهضها لنيل استقلالها واسترداد كرامتها — أصبحت هذه الصورة ملازمة للشاعر البولوني والأديب البولوني بشكل عام ،فلنسمع الشاعر الكبير آدم مسكييفتش يقول :

.... ما انا الا انسان
وجسدي ملصق بالارض التي احببتها
وقلبي هنا في موطني
بيد ان حبي يشمل العالم كله
وحبي ليس من نصيب انسان بعينه
لا ولا لأفراد عائلة بذاتها

ولا لجيل من الاجيال

وفي ذراعي احضن كل أجياله

اريد أن انهض به انَ أسعده

اريد ان اثير العالم كله

إعجابا بشعبي (١)

ويقول شاعر معاصر لآدم مسكيفتش ، هو يوليوش سورفاتسكي ، مخاطباً شعبه في كتابه أنهلي Anhelli :

حذار لاتيأسوا ، فان الأمل الذي فيكم ، ترثه بعدكم الاجيال اللاحقة... فيحييها ، أما اذا مات الامل ... فالأجيال اللاحقة ، ستكون موتى وبلا حياة .

تصوروا ان آمالكم ستتحقق في يوم ، سيكون يوم البعث ،

فياله من فرح عظيم على الأرض

من ابرز المدارس الادبية التي قامت في ظل الاحتلال والتجزئة ، المدرسة الرومانسية ، ويمثلها الشعراء والمسرحيون الكبار الذين عاشوا في القرن التاسع عشر ، وهم ي . سوفاتسكي J . Slowacki وكامل نورفيد C . K . Norwid و ز. كراشنسكي Z . Krasinski ، وابرزهم الشاعر آدم مسكيفتش A . Mickiewi صديق الشاعر الروسي بوشكين ومؤلف اشهر ملحمة وطنية بعنوان « السيد تادوش » Pan Tadeusz . وبعد المدرسة الرومانسية جاءت المدرسة الوضعية التي تجلت فيها القصة البولونية التاريخية الطويلة بأجلى صورها ، واكبر كتاب المدرسة هم : ب . برووس P. Prus مؤلف كتاب (فرعون) وهنريك شنكيفتش H. Sienkiewicz صاحب كتاب كوفادس (٢) Kuo Vadis الذائع الصيت والذي به نال المؤلف جائزة نوبل .

ثم قامت مدرستان هما : الرومانسية الجديدة والواقعية الجديدة ، وومازال آثارهما تعيش في دنيا الادب حتى اليوم .

---

(١) من مسرحية آدم سكيفتش (جدي) ، اي الأجداد او العجزة . وتدور المسرحية حول اسطورة شعبية لحفلة عشاء خاصة ، تقام في ليلة عيد الموتى ، وتستحضر فيها الأرواح .

(٢) معنى هذه الجملة اللاتينية « الى اين انت ذاهب » وقد وردت في الإنجيل موجهة الى الحواري بطرس . وتدور الرواية حول الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون الأولون في روما أيام نيرون .

أمـا المدرسة التي سبقت مبـاشرة الادب البولوني الحديث فتعرف بالمودرنزم Modernisme او « ادب بولونيا الفتاة » . في هذه المدرسة تيار التشكك بالمستقبل والتنكر للواقع والتشاؤم في معرفة كنه الوجود وسبر غور الحقيقة. وهذا مثل على الصورة المتشائمة السوداء :

قبر الشاعر

هنا قبر الشاعر
في ارض غير مقدسة
ليس عليه من صليب ، ولا يعلوه نصب
ليس هناك من ورود
ولم يقف على الجدث خطيب
اصطف جميع حول القبر
في صمت مؤثر كئيب
وما ان انهال التراب
حتى سار الجمع وانصرف
وبقي الشاعر وحده في جوف الارض
وفي صدره جرح نازف أسود ..

وتابع الشاعر تتاير Tatmajer ـ صاحب هذه الأبيات، بوصف ألم الشاعر وغربته، والجوع والضحايا من حوله والخوف الرهيب المسلط عليه .

وقام مع الاستقلال سؤال كبير ملح ، كيف تبدو بولونيا الجـديدة ؟ اي بمعنى ابسط وادق :ما هو نوع الحكم ،وكيف تكون ممارسته ثم تطبيقه، ولصالح من من طبقات الشعب المختلفة ؟ اخذ هذا التساؤل طريقه الى الادب ، وقام الادب بمعالجته والدخول في تناقضاته ومضاعفاته ، الامر الذي كانت نتيجته الطبيعية ان غابت عن الافق صورة الشاعر النبي النذير ، والرومانسي الحالم ، وحلت محلها صورة الشاعر الجديد الذي أخذ على عاتقه معالجة الامور الجديدة ، الامور العادية البسيطة للمواطن العادي البسيط . تطلعات كانت الجماهير الى الاستقلال مقرونة منطقياً بحاجات الناس اليومية لاصلاح ذات امرهم ورفع مستواهم المعيشي والثقافي ، غير ان هذه الآمال التي عقدها الناس على الاستقلال والحكم الوطني اخذت على مر الايام تخيب وتضمحل، اذ ان هذا الاستقلال لم يجلب معه الرخاء المتوقع لعامة الناس. فقام في

الادب اتجاه جديد نستطيع ان نسميه اتجاه « المحاسبة » ، ولما كانت نتيجة هذه المحاسبة قاتمة ظهرت علامات الخيبة وساد التشاؤم بين المثقفين وحملة الاقلام المخلصين ، وخير انعكاس لهذه الصورة نجـــده فيما كتبه الاديب الكبير استيفان جوورمسكي S . Zeromskt (١٨٦٤ – ١٩٢٥) اكبر كتاب القصة البولونيين في النصف الاول من القرن العشرين وأجلهم اسلوباً وانغاماً ملكة ، نجد ذلك خاصة في قصته المشهورة «قبيل الربيع» Przed wiosnte التي ظهرت سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٦ ظهرت قصة « الحدود » لصوفيا ناوكوفسكا Z. Natkowskt (١٨٨٤ – ١٩٥٤) وهي قصة واقعية تصف التغيرات التي طرأت على المجتمع البولوني في ظل الدولة الجديدة ، ولقد اهتمت المؤلفة بشكل خاص بحياة الفرد اليومية ، واكثر ما كان يقلقها هي المسؤولية الادبية والاخلاقية المترتبـــة على الانسان بسبب تصرفاته ونشاطه .

وامتداداً لما كتبه جوورمسكي ، فقد ظهرت القصة السياسية ، التي تعكس خيبة الناس في الحكم وان قصة الاستقلال أصبحت أشبه بأقصوصة ترويها الجدات لاحفادهن الاطفال . ومن ابرز كتاب القصة السياسية ليون كروتشكوفسكي L. kruczkowski (١٩٠٠ – ١٩٦٢) الذي شغل قبيل وفاته منصب رئيس اتحاد الكتاب البولونيين ، ومن مسرحياته « الالمان » و « اول يوم للحرية » وغيرهما . واشهر رواية له تعالج الوضع السياسي مابين الحربين هي « كورديان وخام » وهي كما يصفهـــا المؤلف « محاولة لسرد قضية الفلاح البولوني في قصة ... مع وضعهـــا في اطارهـــا التاريخي الواسع » .

وصدرت في (١٩٣٣ – ١٩٣٤) رواية « الايام والليالي » لماريا دوبروفسكا M. Dabrowska وهي رواية طويلة تقع في ثلاثة أجزاء وهذه الرواية تعيد الى الذاكرة – باسلوبها وواقعيتها – الروايات التاريخية الطويلة التي ظهرت في نهاية القرن الماضي .

والاتجاه البارز الثاني الذي ساد في دنيا الادب وخاصة في الشعر – هو الاتجاه الغنائي Lyrisme الذي اخذ الشعراء يدعون اليه في الحاح كرد فعل على دور الشاعر السابق ، الشاعر الذي كان جل همه ان يكتب في الامور الوطنية الكبرى وفي العموميات ، وبما ان البلاد نالت الاستقلال المنشود فقد حان الوقت يعالج الشاعر خلجات نفسه واحاسيسه الذاتية ... كما يقوم بذلك جمهرة الادباء في فرنسا وايطاليا وغيرهما .

فن ١٩٢٨ - ١٩٣٠ ومن ١٩٣٥ - ١٩٣٩ أخذت تصدر في وارسو العاصمة مجلة شهرية باسم سكامندر (١) Skamender والتف حول هذه المجلة جماعة من الشعراء عرفوا باسمها اي « جماعة الاسكامندر » وابرزهم خمسة م : ل . ليخون L. Lechon' ، و ك . فيجنسكي K. wierzynski ، ا . سوومنسكي A. Slominski ، ي . توفيم J. Tuwim ي . ايفاشكيفتش J. Iwaszkiewics . ولم يكن لهذه المدرسة الفنائية برنامج نظري مدروس وموحد ، وانما كان اعضاؤها يدعون بأن على الشعر ان يغني الحياة كما هي وكما يحسها الشاعر نفسه ، وكانوا مغالين في حبهم للطبيعة والحياة من حولهم ، الامر الذي يذكرنا بقوة شعر ابي ماضي في الادب العربي المعاصر . وكان يغلب على هذه المدرسة طابع المسامحة والبساطة ويسود كتابة اعضائها نوع من الحوار العادي ، ومع هذا فقد احتفظوا بالشكل التقليدي لأشعارهم من حيث الوزن والقافية .

لنسمع « دعاء من اجل اغنية » للشاعر توفيم من ديوانه « كلمات في الدم » سنة ١٩٢٦ :

اذا كانت الكلمة عطيتك المقدسة ايها الخالق
فاجعل قلبي يفيض بالغضب كالمحيطات
واجعلني اكون كالشعراء السابقين
بسيطاً وشريفاً
وكالعاصفة الدموية تلطم المتخمين والطغاة
لا ، لا تلهمني أناشيد المديح
فاصحاب الصدور الجريحة ، تحت الثياب الرثة
لا يعنون بالمدائح ،
ترام وبطونهم خاوية ، يصرخون من أجل اللقمة
ويهرعون مع الاوركسترا ... التي تزعق من أجل الملوك
ولكن يا رب امنح كلماتي الغاضبة
قوة الفولاذ وسطوع اللمعان

(١) أخذت الجماعة هذه الاسم من رواية (الأكروبول) للشاعر الفنان س . فسبيانسكي ، وهو اسم نهر مشهور في الأساطير اليونانية (النهر الأصفر) ، كان يسقي طروادة ، ويقع في آسية الصغرى ، في المنطقة التي تشغلها تركيا ، ويعرف اليوم بنهر مندرايس .

وبروز الخيال والرشاقة

اعطني قوافي لانطيش

كي اصيب من ارمي بها في عقره

وكأنها طلقات سريعة

تشع بالأغنيات

من بين الاحياء من هذه الجماعة الشاعر والكاتب القصصي والمسرحي ي. ايفاشكيفتش ،وهو الآن رئيس اتحاد الكتاب البولونيين . صدر اول ديوان له سنة ١٩١٥ وبعدها اخذت كتبه تصدر تباعاً ، وهو في اشعاره التي تفيض بالفرح والمسحة الجميلة الرومانسية يختلف بعض الشيء عن بقية هذه المجموعة .وكثيراً ما انتشى في مطلع حياته بالافكار والتخيلات المنحة عن الشرق ، وعندما اتيحت له الفرصة اثناء الحرب العالمية الثانية ومر بكثير من بلدان الشرق الاقصى فقد رأى الوضع هناك في اطار جديد وبلون جديد الامر الذي ترك عميق الاثر في نفسه . وكما يقول هو نفسه : « اولئك الذين يكدحون بزرع الرز وهم يتضورون جوعاً » ، ثم كتب ببساطة الابيات التالية :

ايها الفلاحون ،

انتم البعيدون والقريبون في كل العالم

المسلحون بالسلاسل المعدنية ، وبالمناجل الخشبية

هل تصدقون شاعراً من أرض غريبة

بانه منكم يستمدُ الحق ليقول اشعاره

ولقد كان الشاعر ل. ستاف « ١٨٧٨ – ١٩٥٧ » L. Staff معلماً وأباً روحياً لهذه المدرسة .وهذا الشاعر الكلاسيكي هو من أعظم الشعراء البولونيين الغنائيين في القرن العشرين على الاطلاق،تسود اشعوره موسيقى عذبة وكأنها الجدول الجاري وتفيض بالتشبيهات الجميلة « رائحة الماء الاخضر في ظل الشمس الذهبية » واشعة الاصيل المسمرة على اطار الغروب الحمر . وكلمات هذا الشاعر -المزودة بالاشعة والالوان والصور- تبعث دائماً على الفرح والتفاؤل .

وهذه مقطوعة من شعره بعنوان « في هذه الايام » ايام الاحتلال النازي واستفحال جرائمه .

في هذه الأيام

حيث الآلام والخجل يحرقان النفس

حيث العالم كله يغرق في الحقارة

كما في المستنقعات

والانسان ! الانسان من اليأس يصيح

« الق نظرة وامش »

تالله ما اقل ما تهفو اليه نفسي

فبعد الليالي الطويلة التعيسة

والمملوءة بالقتل المجنون والنهب

تهفو ... بان افيق من النوم

افتح الباب الى حديقة

تفيض بالشمس الطاهرة

وتسبح بالخضرة اليانعة

ومع تطور المدينة البولونية واتساع رقعتها وازدياد عدد سكانها ، وقيام الصناعات والورشات المختلفة في البلاد وتمركز الطبقة البرجوازية الوطنية المتحالفة مع رس المال الاجنبي وازدياد طبقة العمال عدديا ، او بكلمة واحدة ، مع قيام المدنية العصرية وتغلغلها في حياة الناس اليومية ، هذا التبدل البارز قد وجد انعكاسه على الشعراء فقامت في مدينة كراكوف مدرسة جديدة عرفت باسم « الطلائع » Awangarda . اخذت هذه المدرسة تغني للآلة وللبشر المتزايد حولها في المدن المكتظة بالبشر والمسودة الجدران والتي تعلوها المداخن والابراج وتعمها الضجة والضوضاء . لقد دخل شعر هذه المدرسة في معمعة الآلة واخذ يغني للتقدم التقني ، فابتعد بذلك عن الوسط الهامس المشحون بالعواطف

الرقيقة والروائح الزكية والليالي المقمرة الهادئة . وقاد ، هذا الابتعاد في محتوى الشعر الى التنكر للشكل التقليدي في التعبير ، فظهر مايعرف عندنا بالشعر الحر ، او الشعر المطلق ،الذي لايتقيد بقافية واحدة ولا وزن واحد .

ومن ابرز شعراء هذه المدرسة ي . بشيبوش (١٩٠١-) J. Przybos وتاديوش بيبير T. Peiper (توفي سنة ١٩٦٩) الذي كان عميد هذه المدرسة وفيلسوفها النظري، والذي رفع شعار « المدن ، الجماهير ، الآلات » .

وهذه مقطوعة قالها بشيبوش بعنوان « الى عاملة » :

في صالة المعمل
ومن يد ليد
وكأنها الدرب المشجرة
ينتقل الفولاذ ،
يتكاثر
يرتفع ويرتفع
. . .
حتى الذرى حتى القمم
عبرت الدرب
وتأملت ....
تأملت التحام القوة بالاحلام
وكيف هذا الالتحام تدعوه سلاح ...

اما المدرسة المستقبلية Futurisme - التي اعلنها سنة ١٩٠٨ في ايطاليا الشاعر مارنتي(١٨٧٦ -١٩٤٤) Marinetti وتبعه آخرون في اوروبا فقد كان شعارها طرح الماضي والسير مع روح العصر ثم تقديس الآلة والتنكر لكل التقاليد الادبية والروحية وقد غالا اتباعها فنادوا برمي جميع المؤلفات الكلاسيكية الى سلة المهملات . هذا وقد شقت هذه المدرسة طريقها الى مدارس الفن والرسم تحت شعار التكعيبية التي اوجدها الفنان براك Breque . واخذها عنه بيكاسو واشتهر بها . صحيح أن

بالمدرسة المستقبلية في الادب والشعر ذات طابع رجعي خاصة في ايطاليا ، ولكن هذا الطابع لم يكن السائد على هذه المدرسة واتباعها في بولونيا وروسيا فقد انتشرت في هذين البلدين في سنوات ١٩١٨ – ١٩٢١ ، وكان من شعرائها في فترة قصيرة من الزمن ب . ياشنسكي البولوني ثم الشاعر الروسي ماياكوفسكي . وكان الطابع العام لهذه المدرسة في بولونيا هو التمرد . المشحون بدفقات فوضوية مندفعة غير منظمة - على الثقافة البرجوازية ونمط تفكيرها الضيق والاناني : الهجوم على المدارس الادبية الأخرى ووصفها بانها تقليدية محافظة لاتأبه بالزمن وبجبروت الآلة والتقدم الذي يرافقها ، لم يبق لهذه المدرسة من اتباع فقد تفرقوا في كل واد ، سوى الشاعر ستيرن ١٨٩٩ – ١٩٦٨ ، وهذه احدى قصائده :

الخطيئة الاولى

وقفت حواء عارية
وقفت حواء صامتة
تكلمت بيديها
تكلمت برجليها
وكان مالم يكن
وصارت حواء بيضاء
واكلت حواء الثمرة
وهذا كان البدء
بدء كل شيء
أتذكرُ
هذا كان البدء
يا آدم

ويحتل الشاعر قسطنطين قاووتشلسكي مكانة خاصة (١٩٠٥ - ١٩٥٣) K. I. Galczynski .. وهو ناقد ساخر وصاحب قلم لاذع يعكس في اشعاره وبصدق عميق مايحس به ، فهو من أكثر الشعراء قرباً الى القارىء ، ومن احبهم اليه . وكثيراً مايذاع شعره ويغنيه المغنون وكثيراً مايقدم الفنانون - في مختلف المسارح - اشعاره الهجائية الساخرة ، اعتقل في اثناء الحرب العالمية الثانية في احدى المعسكرات النازية ، ومن هناك بعث برسالة الى زوجته سنة ١٩٤٢ :

رسالة أسير

حبيبتي آه ياحبيبتي
ليلة سعيدة فعينك نعسانة
ها انا المح خيالك على الحائط
والليلة ربيعية ريانة

آه ياوحيدتي في هذا العالم
كيف السبيل لأخلد اسمك ؟
فأنت لي كالماء في الصيف وكالقفاز في الشتاء

* * *

انت انت سعادتي الربيعية
وانت نوري في هذا العالم
واغنيتي عبر الطريق

وله أشعار أشبه ما تكون بالتحقيق الصحفي ، وهذا مثل على ذلك :

حي التارقوفا[1]

هنا في الامسيات يعزف الشبان على الماندولينا
ويد الريح تلعب بشرائط الشعر الملونة
كل شيء هنا يختلف
النجوم هنا وكأنها ثمرات العناب
وتعم الفرحة عندما يبدو القمر خلف دار السينما
وملائكة البروليتاريا - الصبايا - يخرجن من المصانع
شقراوات ، ورشيقات ، ولذيذات
يغمضن العيون على بحر من زرقة الزمرد
يأكلن النقل ، ويشربن ماء الصودا
ببساطة ودونما تكليف
وينشرن نهودهن للشمس الجميلة
وكأنها القوس
وحينما يمضي المساء
مع انغام الماندولينا
والقمر يغادر السينما بانحدار خلف دار الكهرباء.
عند ذلك الضباب والكحول
يشملان حارة التارقوفا
بازدياد كثيف والم ...

---

(١) حي عمالي ، كان في وارسو قبل الحرب العالمية الثانية

ووسط كل هذه التيارات المتناقضة، كان شعر وأدب الكتاب اليساريين والثوريين يأخذ مكانه اللائق، وكان أدب هذا التيار يعكس بأمانة تطلعات الجماهير المستغلة والطبقات الكادحة في الخبز والعمل والعدل الاجتماعي. أما الصفة البارزة لهذا التيار فهي روح التفاؤل والايمان القوي بالغد، وكان الشعر الرومانسي والوطني بشكل عام ينبوع وحي للادباء اليساريين الثوريين، ولقد تأثروا جداً بالثورة البلشفية، وانخرط كثير منهم في صفوف الأحزاب اليسارية، ومن هنا أطلق عليهم اسم شعراء البروليتاريا، ومنهم الشاعر لشيان صاحب مجموعة « المروج » التي تغلب عليها مسحة صوفية متأثرة بالفلسفة الهندية، وتسودها روح التفاعل بين الانسان والطبيعة، ثم الشاعر فانديسكي الذي يختلف جو شعره عن سابقه فهو يصب نار تمرده بشكل ديالكتيكي منطقي يتماشى مع احساسه الغني المرهف الثوري. أما الشاعر فوادیسواف برونيفسكي (١٨٩٧ — ١٩٦٢) W. Bronievski فهو من خيرة الشعراء المناضلين، وقد بذل جهده في خدمة شعبه وطبقاته الكادحة، ولقد عاش حتى الحكم الشعبي الاشتراكي، فتغنى بمكاسبه. ولكنه قال معظم أشعاره قبيل ذلك. فقد صدر اول ديوان له « المراوح » عام ١٩٢٥. وبعد مدة صدر ديوانه «دخان فوق المدينة»، وبرونيفسكي احد مؤلفي ديوان «الثلاثة مدافع». ومن الجدير بالذكر ان الشاعر عاش في بلادنا العربية أثناء الحرب العالمية الثانية، وخلال اقامته كتب ديوانه الذي يمكن ترجمة عنوانه بـ «اشهروا السلاح» عام ١٩٤٣، ولقد عاد الشاعر الى وطنه عام ١٩٤٦. وأشعاره اكثر ما تلقى الآن في المدارس وبين صفوف الكشافة. وهذا نموذج من شعره الذي يفيض بالايمان وبانتصار قضية الثورة، وان الظلم وحساسات الرجعية تندحر امام صمود الثوار وتضحياتهم.

موت الثائر (١)

من هذه الزنزانة الرطبة الموحشة
لابد بعد لحظات من ان تساق
فتأمل بعين الصفاء، صفاء السماء
واذهب بتأملك بالاثر الذي خلفه الشباب

---

(١) من ديوان دخان فوق المدينة، سنة ١٩٢٧.

ما هي الا لحظات

وحتى يأتي الدرك

وبلا كلمة يسوقونك من الزنزانة

يجب ان تعلم انك كالجندي في الجيش

عليك أن تسير بثبات

الى أسوار القلعة

تالله أن تموت ليس بالشيء العسير

ولو ان القلب

ابن عشرين ربيعاً

لاتثنيه النكسات

عشرات النكسات

فلعشرات النكسات يتسع

* * *

هناك حياة اجمل ، حياة جديدة

تستحق أن تحياها

وتستحق أن تموت من أجلها

فيجب أن ترفع رأسك كالراية

وليضيء صدرك الممزق بالطلقات

* * *

يجب أن تعرف كيف تموت بروعة

وكيف تستقبل البندقية المصوبة بشجاعة

ها ان الحسة تعجب

تضطرب ...

ثم يخرس قصف الضربات

ومثال آخر على الثقة بالمستقبل :

الى الرواد[1]

ليدقوا الصدور بالمطارق

فلن يمزقوها

ليكموا الأفواه

ولو انها تسيل دما

سيزداد العالم تألقاً وجمالا

وستفيض الدنيا بالبهجة وبالغناء

(١) نفس الديوان .

أغنية إلى جيفارا

ملك عبد العزيز
— القاهرة —

ما تستطيع الكلمات أن تقول ، حين تصبح الحياة شعرا ،
والمهات أغنية
حين يكون الفعل لا يرقى اليه الحلم ، والواقع بز منطق
الأسطورة الخارقة الأحداث ، فاق كل أمنية

* * *

يا فارس الفرسان في زمان قد خلا من الشهامة
يا هاديا خلال أبحر التضليل والقتامة
تعرف ما تريد ، لم تضلك المساومات والتنازلات ،
والتماس الأمن والسلامة

* * *

يا راهبا خرجت واطّرحت زينة الحياة
والأمن والرفاه

لتنشد الخلاص للانسان حيث تاه
من ربقة الفقر ومن ذل الجباه

* * *

يا فاديا لعار عصرنا الملطخ الجبين
وهبت للانسان حيثما يكون
دماء قلبك الجسور ، لحم جسمك الطهور
لتخصب الأرض وتبعث الحياة في القبور

* * *

أعدت عهد الأنبياء ، عهد البذل والشهادة
آثرت أنت أن تكون صانعاً المعجزات ،
تصنع التاريخ في دروب العزم والارادة
أبيت للأحرار أن يظلوا خلف مدخل التاريخ ،
يسألون النصر من كفاح الغير ، يمضغون الوهم والبلادة .

* * *

حيث سريت في السهول في الجبال
ستزهر الفصول ، ينبت الثرى الثوار
لقد وُجدتَ ، قد وجدت ،
قد وجد المثال .

ظهيرة محرقة

للكاتب البلغاري
يوردان راديتشكوف

ترجمة : ظافر عبد الواحد

كان ذلك في اليوم الثاني للبيانات العملية التي كان مسرحها السهل والهضاب الممتدة في سفح جبل (تشيركاز) . البارحة دخلت كل الفرق في المضاع الحربي مدعومة بالطيران والمدفعية الصاروخية ، ودمرت أثناء اشتباكها أربعمئة هدف (ولم تصب المدفعية الصاروخية والطيران والفرق المدرعة بأية خسائر) . ومع ذلك فان احداً لايمكنه أن يعتقد اليوم أن معركة جرت في هذا المكان . وكان بعض الفلاحين يدفعون عرباتهم المليئة بالاعشاب ، والخيل ترعى ، وجرادات خرجت من ثغراتها لتطير بقعاً خضراء في الجو الملتهب ، وكانت الشمس قد شربت ندى الليل ليتسنى لها الصعود الى السماء لتنضج القمح في القاع لأن قمح الهضاب قد حصد . كانت الجرارات تقرقع عند انطلاقها للفلاحة قبل وصولها الى ساحة الدبابات حيث تغرس براثنها في آثار آلة الحرب. بينما كان الحجل الذي نجا يصيح من كل مكان كأن كل طير يريد أن يبشر الآخر بأن صاعقة وجحيم البارحة وليا تماماً .

وكانت الارض تبرأ وتتنفس ، وتنضج نسغها بحرارة الظهر الشديدة . وتداوي جراحها سراً ، وتحتفظ في أعمق أعماقها بذكرى عنف هذه البيانات العملية والصدوع التي احدثتها .

ويجب أن تعرف كيف تقبض على عصا الغضب الساكنة وتسيطر عليها ؛ كالأسد الذي ينظر بعيداً ، وهو هادىء ، ولبدته الذهبية مفروشة على قوائمه اليقظة . وانعكست القوة الشديدة للصيف الخير حتى على حقل الطيران . فكانت الطائرات الصغيرة تتحرك على طول مكامنها مديرة مؤخراتها ، كأنها الخيل الفتية المستعدة لدخول الحلبة .وقيل انها مازال تحس بالتهاب عجلاتها عندما كانت تحط ، البارحة ، على مدارج الاسمنت المقسمة الى معينات كبيرة ، مثل قوقعات سلاحف منتشرة في السهل .

وكانت قطعان من الخراف شاردة بين العشب ، تراقب حركات اجهزة الرادار المتمركزة على مرتفعات صفراء . والاجهزة تراقب السماء ، وتقسمها ، وتحلل كل قسم ولكنها لا تجد فيه إلا الشمس والزرقة اللتين تحيان على الارض لتختلطا بها وتثيرا نفحة النضج السرية .

وتتجه القيادة ، في عربات مكشوفة ، نحو (وشنة رقم ٣) ، حيث ستراقب ، بعد الظهر ، مجرى نهر (تشيركاز) وتمركز الجيش في أوضاعه المستجدة من أجل العملية التالية .

كانت (وشنة) على مرتفع خلف حرج تنبثق منه هوائيات جهاز استقبال. وما كاد العسكريون الذين قدموا اليها ، يقطعون مئة خطوة من المرتفع الاقرع ، حتى كان ضباط وجنود ارتباط يخرجون من الحرج ركضاً ليطلعوا الفريق على البرقيات الملتقطة واخذ الفريق يروح ويجيء غاطاً بأركان حربه . انه هزل واصفر واحمرت عيناه . ومنذ البداية ، دخلت فيه شدة البيانات العملية كأنها تفريغ كهربائي ، واحتكر انتباهه إيقاع سير الفرق ، وتنسيق كل حركات التشكيلات التي وضعت موضع التجربة في سمت السلم.

كان الفريق يعتقد ان هذه القوى ، هي القوى الحيوية للحزب .وعليها الدفاع عن ثرواته ، لأنه كلما ازدادت الثروات ازداد الحسد الذي بسببه ازدادت جاذبيتها ، وازداد الجوع الذي تولده حدة .

الجوع ، أم هواجس الجوع ؟

كان الفريق ينظر الى الشمال ، حيث انطلقت البارحة نار المعركة.واستعاد الصمت والهدوء الآن سيطرتها .

وكانت طائرة مروحية تبزغ متجهة نحو الحرج مزعجة ومشوشة عمـل الجهاز المستقبل .

وحطت على المرتفع . وكنس هواء مروحتها الغبار والعشب اليابس .

كانت الطائرة تحت تصرف الفريق الذي استخدمها منذ بداية البيانات العملية كأنها دراجة عادية وظل طاقمها في حجرتها بانتظار الاوامر .

واتى ضابط ارتباط رملاً الى قرب الفريق ليخبره بأن هناك عرقلة على جسر نهر (تشيركاز) ، وأنه لايمكن عبوره بطريقة عسكرية ، أصاب التشكيلات بالفوضى .

فدهش الفريق :

— على الجسر ؟

وشرح له أن الالوية وصلت الى الجسر ، وأن الطريق كله كان مسدوداً .

وأخذ الفريق يحتد :

— ولكن كيف يمكن هذا ؟ ولكن كيف يمكن محاولة قهر نهر بطبيع جسر فوقه ؟

وضرب فخذه ضربة قوية وأردف قائلاً : « ياها من سخافة ! قهر النهر بجسر ! »

وهنا اتجه الفريق بخطوات عصبية من ساقيه العضليتين نحو الطائرة التي عادت مروحتها الى الدوران . وقال للملاح وهو يتحرك قبيل ان يتجه نحو جسر نهر (تشيركاز)

زفرت الطائرة وتحولت مروحتها من صليب الى دائرة ومادية واسعة وانتشر الشراع جارا الى الاعلى اطراف الدائرة التي سمت في بياض السماء . وتسارعت حركة المكابس ، وزمجر صدر الآلة الفولاذي . وعندما ارتفعت الطائرة عن الأرض ، اتجهت نحو المخرج . انحنت ذرى الاشجار ، بينما اتجهت الطائرة نحو الجسر بعد ان قامت بنصف دورة .

ونشر الطيار خريطته ليحدد قطاع الطيران . ولشدة الضجة والذبذبات ، كان الفريق وهو قاعد في بطن الطائرة الضيق ، يشعر وكأن المحرك فيه ، في قلبه ذاته . ونظر من النافذة . بدت الأرض وكأنها ستنقلب عليهم ثم انبسطت وأخذت تجري تحت بطن الطائرة ، موحدة ، ومقسمة الى مربعات ، ومقطعة قنوات ، كأنما جمعتها يدا طفل .

ولم يستطع الفريق أن يبقى قاعداً . فنهض وأخذ يقوم بالخطوات المتة في الممر الضيق ، ناظراً دائماً من النوافذ . وماعتم الطريق انظهر . كان يتألق تحتهم أسود وضاء كحبل قاتم رمته يد مجهولة بين الحقول والغابات .

وكان الخط الحديدي ينساب موازياً للطريق ، ولكنه يوفر المنعطفات . ورأى الفريق قطاراً ساكناً ، ودهش لأنه لم يكن حوله تجمع . واقترب الفريق من النافذة ليتأكد من الأمر . لم يكن هناك ريب في ذلك . كان على الخط قطار ساكن وأسود تماماً. وبدا للفريق أن أمام القاطرة بضعة أشباح تحرك أيديها . ولكن سرعان ما حالت أشجار الحور الكندي بين القطار والطائرة ، وعاد الميدان خالياً .

ونسي الفريق بسرعة في محبسه الطائر ، القطار ، ليعير انتباهه للمغارز التي كانت مشلولة امام النهر .

وكان الفريق يتابع غضبه قائلا :

– محاولة اجتياز جسر أثناء البيانات العملية !

وأخيراً ظهر النهر والجسر .

وزأر الفريق وهو يتأمل الرتل الساكن على طرفي الطريق :

– يالها من حماقة !

ولم يكن ينبثق أي دخان من الدبابات فاغرة الفتحات التي توقفت محركاتها تماماً . وانقضت الطائرة فوق الرتل ثم غيرت اتجاهها . وعندئذ رأى الفريق اللوحة كلها .

كان جيشه مصفوفاً على طول النهر ، وكان بعض الجنود والضباط يتزاحمون على طرفي الجسر : بل ان بعضهم ولجوا الماء ، وكان هناك ايضاً كثير من المدنيين على الضفتين رجال ونساء وأطفال . كان بعض الناس قد تراكموا عناقيد على الجسر ؛ بينما تسلق غيرهم درابزونه . وتوقفت عربة اطفـاء في اول الجسر ، وكان يمكن رؤية رجالها يبسطون خرطومهم الطويل وهم يهرولون ، ودوت الطائرة وانقضت فوق أحد أطراف الجسر ، وطارت فوق الماء ، وعندما ظن الملاح أن ميل حافة النهر لا يتجاوز أربع عشرة درجة قرر الهبوط . وانتصب عمود من الماء نحو الطائرة التي ابتعدت كأنها خشيت أن تبتل ، ثم انغرست عجلاتها بلطف في الرمل .

وقفز الفريق من الحجرة ، كان الغضب قد جعله مسعوراً . واسرع اليه ضباط وهم يصلحون هندامهم . وواجههم الفريق ، كما كان يواجههم في كل مرة وهو غاضب .

ولكنه ما أن التفت نحوهم ، حتى رأى تحت الجسر رجالا يخوضون الماء خالعين سراويلاتهم . بل ان هناك جنوداً خلعوا أحذيتهم وهم يتكلمون أو يصيحون . وخطا بضع خطوات في الرمل الرخو باتجاه الجسر مأخوذاً .

وعندئذ رأى في الماء رأس طفل أشقر : رأساً حليقاً بالماكينة . ونظر الطفل الى

الفريق نظرة هلعة ، والتفت برأسه الى اليسار ثم الى اليمين ، ورفرف جفناه ، ثم ركز نظره على رجل الحرب . وفتحت الدائرة التي كانت حول الطفل ، فقد ظن كل امرىء أن الفريق يتجه نحوه . ولكن القائد استمر في التوجه نحو الجسر بخطوات عصبية . وسأل :

– لم هذا الطفل في الماء ؟

كان الطفل يحدق بالفريق فزعاً . وكان الفريق يتأمل الطفل بكل صرامة فريق توقف جيشه . وحاول الطفل ان يبتسم بشفتيه المزرقتين ، ولكن ابتسامته كانت مغتصبة . وحاول الفريق بدوره أن يقوم بالأمر نفسه ؛ ولكن الابتسامة لم تكن طبيعية في وجهه المتعب .

وعاد الفريق الى السؤال ، وقد شعر شعوراً غامضاً بأن ثمة أمراً غريباً :

– ولكن لماذا يبقى في الماء اذن ؟

وعندئذ أخذ كل العسكريين والمدنيين المتجمهرين على ضفتي نهر (تشيركاز) – الذين كانوا فوق الجسر واولئك أصحاب الدراجات – يشرحون للفريق بمجموعة طريقة لماذا بقي الطفل في الماء . كان أكثر من خمسمئة صوت يصرخون ويشرحون ، محدثين ضجة أكثر من الطائرة التي أوصلت الفريق . ان (القدير) نفسه لم يفهم شيئاً من شرح هؤلاء الخمسمئة شخص . فما بالك بالفريق ؟ كان كل منهم يحاول أن يعلو بصوته على الآخرين ، مؤكداً أنه الوحيد الذي يستطيع ايضاح القصة ؛ وبديهي أن الفريق لم يفهم منها قيراطاً .

هذا ماجرى :

كان ثلاثة اطفال من قرية (تشيركاز) يرعون اليوم جواميس على طول النهر . وجذبتهم ضجة نورج يعمل بالقرب من هنا . كان النورج على الضفة الأخرى ، خلف أشجار الصفصاف ، في باحة مزرعة (خربطنوف) سابقاً . وقد ألحقت هذه المزرعة حالياً بالمزرعة التعاونية ، وتدرس قرية (تشيركاز) في الصيف ، وقرية اخرى تتبع نفس التعاونية ، قمحهما فيه معاً لتجنب نقل الحبوب بعيداً .

وكان النورج قد أمم ، كغيره . واسمه (فهر) ، ويدعوه الفلاحون ، الذين يقدرون انتاجه من التبن الناعم والجميل ، (فغركة) . ويعمل به بضعة رجال ، تساعدهم أربع أو خمس نسوة يبقين خلفه في القش . ويجر الاكوام زوج من الثيران بفضل حبال طويلة تمر من الرحى الى الطرف الآخر . وتمثل مثل هذه الطريقة توفيراً في العمل واليد

العاملة لوضع التبن طبقات في الهواء . ومع ضجة النورج المستمرة ، أخذت الرحى تشبه الاهرام المصرية .

كان الموسم يعطي مالي وسعه ؛ ولم يكن العمل يتوقف طوال النهار . وكان الرجال أيضاً يوبخون الاطفال عندما يرونهم يتزحلقون على التبن. كان هذا جافاً وأملس ومصقولا كالذهب ، ومهما حاول المرء فلابد وأن يتزحلق إلى الارض . وعندئـــذ تغطيك جودية شقراء برمتها ، وتغمر رائحة القمح وقشرته حنجرتك . ورغم ان الاطفال لايرضون بحرمانهم من هذه اللذة ، فانهم لايلحون بطلبها عندما يرون شوكات الرجال . ولكنهم يعودون الى النورج ويقومون ببطولات ، متزلقين تحت السير الناقل . ولكن الراشدين يطردونهم من هنا أيضاً بقولهم : « قد ينفصل السير ويقطع رأسك ! » ويكرهون على العودة نحو النهر .

كانت الجواميس المتقشفة تتأمل الماء ، متسائلة عما إذا كان يجب ان تلجه . وتثير الحرارة بعض الذبابات ، فتلدغها ، وتقرر الاستحمام والاغراق الحالم لمضطهداتها .

وكان بعض الاطفال بدورهم يلهون ردحاً من الزمن بالقاء الأحجار في الماء ليندلع دوائر ، ولكنهم سرعان مايملون . ويتعرون ويلقون بأنفسهم في الماء . ولكنهم بعد أن يخبطونه ، يحسون بأيديهم وقد تجمدت فيخرجون ليتدفئوا على الرمل .

ثم إن صاحب القميص الأحمر اعلن انهم يستطيعون أن يلتقطوا سمكاً كثيراً ، إذا ذهبوا الى قرب الجسر . وقال لهم بأن هناك « مناضلين » يختفون في ثغرات تحت قوسي الجسر . هكذا ادعا الاطفال سمك (البوري) لأنه كان يتحدى شلالات النهر ، كأنه يستخف بقلة عمقها ؛ إنه سمك وحشي جداً وماأحمقه اذا خرج من الماء .

وظل أصغرهم ، الذي لم يكن يعرف السباحة ، على الضفة ، ولكن الآخرين راحا تحت الجسر يصطادان « المناضلين »

كان الجسر – الذي انشيء قبل الحرب – طويلا جداً وله قوسان . وكغيره من منشآت الاسمنت المسلح ، لم يكن ملحوماً من منتصفه كيلا ينهـدم اذا كاد يخسف . فالمرونة ضرورية حتى للاسمنت . الا ان الجسر لم يتحرك منذ انشائه .

ألقى الطفلان بعض السمك على الضفة . والتقطه الاصغر ونظمه من غلاصمه في سيخ

وقال أحد الكبيرين :

– يوجد ثغرة هنا ، من يغص يلتقط منها أكداساً .

وقال الآخر :

– حسناً ، لنغص !

وغاص الأكبر وعيناه مفتوحتان ، وتحرك قليلاً تحت الماء ، ثم أخرج رأسه وقال :

– لا بأس ، ولكن لم يكن لدي هواء كاف .

واقترب الآخر من الجدار ليتحقق ، محركاً ساقيه الصغيرتين كالضفدع . وكان يتلمس – وهو يتأرجح – قطع الحجارة الحاطة بالاسمنت ، قطع مخضرة ومزحلقة ، ولكنه لم يستطع أن يجد أية ثغرة . لم يكن هناك غير بضعة صدوع ، ولكنها ضيقة جداً حتى أنه لايمكن ادخال الاصبع فيها .

كان الأصغر يتأمل السابحين ، وهو جاث على الضفة . ولاحظ يعسوباً التصق باحدى السمكات كان يلعق عينها . وحاول طرده بنقفة، واستفز اليعسوب وارتعش جناحاه وظل معلقاً بالسمكة . وضغط الطفل باصبعه على ظهر الحشرة ، وكف اليعسوب عن الحركة . وألقى الصبي نظرة على النمر ورفيقيه . كانت سمكات صغيرة جداً تمضي في الماء مارقة كالسهم ؛ وبلاعط دهشة أو مرحة تدور في مستنقع ؛ وصاحت حجلة بشيء ما في أحد الأماكن في مرعى . والتفت الطفل ليرى ما الخبر ، وعندما فهم أنها حجلة عاد الى النمر .

وكان النمر تلبسه هادئاً ، حتى ليظنه المرء نائماً بين ضفتيه . وكان ينام حقاً في هذه الحرارة في ظل شجر الحور والسرو المائي (تنام الانهار وهي تجري) . والأشجار لاتهمله لأنه يغذيها . وكان يرى نبعه في قباوكه الصيفية ؛ المصانع الحجرية الكبيرة التي تشرب منها الأعاصير وذرى الجبال ، ورأى صورة التيوس وهي تنحني لتشرب ، ثم تجري بخطوات صغيرة فوق العشب الأملس ؛ ويرى النمر – في نفس الحلم – ضفتيه محلتين بتوت السياج الأحمر ، ثم استحمام دب مصاب بجرح خطير ؛ كان راقداً على ظهره في البرد ، وهو يئن وقوائمه في الهواء كأنه يوجه صلاة الى السماء ، بينما يصبغ دمه الماء باللون الأحمر . كان النمر البارد قد روى ظمأه تماماً ، ورقق له الماء البارد وهذه الرطوبة على الجرح الملتهب الذي أحدثه القناص مما جعله يبقى هنا ، ثم تذكر النمر أنه لديه قليلاً من الرمل المختبيء عند حافتيه فقذره في عينيه لينسى جبال (تشيركاز) ... وقد نسيها . وكان يحلم أيضاً بالطيور التي تمشطه وهي تطير باحتكاك ريشها الجاف ، ثم بطائر آخر قائم على ساقين طويلتين حراوين ، ومنقاره الأحمر المعقوف ، المشرب بافكاره .

وكان النمر يحلم كذلك بفتيات (تشيركاز) العاريات اللواتي يجرين بين شجر الصنوبر المائي ، ملوحات بأذرعتهن البرونزية الى مرافقها ، ولكنها بيضاء بضة فوقها .

وكانت الفتيات تبحث عن ملجأ بين الصنوبر ، كما يبحث الماء عن ظل يقيه الشمس وكان النهر يحميهن ويغسل وجوههن وينقل اليهن أريج توت السياج البري والجبال ، ويترك لهن قليلاً من رائحة التيوس التي شربت من الماء نفسه ، ولكنه يحافظ على عبيرهن فتيات؛ وكان هذا العبير لذيذاً، حتى ان الرمل والحجارة كانت تستيقظ لتسرقه منه في الطريق ، ولا تترك له غير ذكرى عبير الفتيات .

ولكن النهر لم يكن يأسف لذلك ، لأنه كان يعلم انه سيلقى فتيات غيرهن ، ويأخذ شيئاً من عبيرهن وهن يستحممن أو يغسلن وجوههن أو يتعرضن لدغدغة الماء الشفاف.

كان يجري بهدوء ، على رؤوس اصابعه ان صح التعبير ، وهو يحمل على ظهره الصبي ذا الرأس الحليق بالماكينة والوجه المليء ببقع الكلف. ولأياً ما كان يعرف السباحة والنهر يحتاج الى انتباه ، ويكفي لأصغر موجة أن تغلق فمه المفتوح من الجهد.

وصرخ الصبي ذو الرأس الحليق :

– هي ذا ، هنا ! هنا ، هنا !

وصعد الآخر نحوه فوق ظهر الماء الشفاف .

– هناك حجر كبير في الاسفل تماماً ، وهو مليء بالسمك . قرية حقيقية !

وسأله الآخر :

– أين ؟

وردد صاحب بقع الكلف :

– هنا ، هنا .

– واذا صح ذلك ، فهل هو مليء به !

– انه مليء به وهو يتحرك . هذا بطن ، ألا ترى كيف يتحرك ؟

– يجب أن نسد الثغرة من الاسفل كيلا يفر .

– امش من الجهة الاخرى !

وابتعد الصبي عن الجدار الحجري ليدور حوله ، بينما كان الآخر يحرك احدى يديه واحدى ساقيه . وكان قد أدخل يده الأخرى في الثغرة وأحس بالسمك يخفق بين اصابعه . وكان هناك كثير منه في العش الحجري في الجسر .

وكان الصبي الآخر يسبح خلفه . سمعت ضجة غريبة تحت الجسر ، كانت تشبه قرقعة الجليد في الشتاء . فعندما ينتفخ الجليد ، يقرقع وتنتشر الضجة في النهر ،على طول الصدع الدقيق الشفاف . كانت قطع الحجارة الخاطة باسمنت هي التي توشك أن تتحرك. كان المعلم قد توقع الخسف منذ انشاء الجسر .

كان المعمار يعلم أن الأرض ستنزلق تحت الحمولة في وقت مـا ، وحسب مقدار التراكم . وتحرك طرفا القوس المركزي حركة خفيفة جداً متقابلين ثم تحرك كل شيء.

وسأل الصغير الذي فوق الحافة :

– ماذا يجري ؟

وأجاب الأشقر ذو الشعر الحليق بالماكينة ، ومازال يده متوغـلة في عش الاسماك الحجري :

– انه الجسر .

وقال الذي كان يدور حول الجدار ويسبح في الخلف :

– تراجع الآن قليلا لأتلمسها انا ايضاً .

وقال الاشقر :

– لااستطيع :

– كيف لاتستطيع ؟ تراجع قليلا : لاتوجد ثغرة هنا . تراجع لأرى أنا أيضاً.

وكرر الآخر :

– قلت لك أنني لااستطيع. كانت يدي تمر من قبل بيسر . ولكن هناك شيئاً ما يمسكها الآن .

– أليست الحجارة التي كانت قد تحركت؟

وقال الاشقر الصغير :

– لاأفقه شيئاً . أن هذا يضغط على قبضتي .

وحاول الآخر أن يرى اين كانت يده محصورة . والواقع أنها لم تكن محصورة ، بل انها كانت تتحرك بحرية في العش الحجري ، ولكنها لم تكن تستطيع الخروج منه . وكان الصبي يحافظ على وضعه فوق سطح الماء ،بفضل يده الاخرى وساقيه .

وقال الصبي الآخر :

– حاول ايضاً قليلا .

– انك ترى تماماً انني احاول ! ولكنني لاأصل الى شيء .

وصرخ الذي كان باقياً على الضفة مع الاسماك :

– اسحبها .

وأجاب الآخر :

– لاسبيل الى ذلك .

– وماذا نحن فاعلون الآن ؟

وسكتنا بينما كان الأول يحاول سحب يده ، دون ان يفلح في ذلك . كان الخسف لقد اغلق الفخ ، وعندما رفع رأسه رأى ضخامة قطع الحجارة المتزلقة المعلقة فوقه ، باردة ، صامتة ، مليئة بالظل . وكان الجسر كذلك هادئاً ، ومعصوماً عن الألم، وبارداً كجميع الجسور الاسمنتية . وكان هناك حلزون ملتصق فوقه بقليل ، ينام في قوقعته.

وصرخ الطفل فجأة :

– لقد أشرفت على الغرق ، آه أشرفت على الغرق !

وسبح الآخر – الذي كان خلفه – بسرعة نحو الرمل . كان يضرب الماء بيديه وقدميه ، وما أن لامس الحافة حتى صرخ :

– لاتتحرك ، أتسمعني ؟ لاتتحرك ! سأدعو أحدهم .

وظل الاشقر الصغير يصرخ :

– أنا مشرف على الغرق .

ورد عليه الصدى :

– راق

ونظر الذي كان يمسك الاسماك حوله وأخذ في التراجع .

وصاح به أكبرهم الذي كان يخرج من الماء :

– ابق هنا !

وصاح الآخر من اسفل الجسر وهو يدير عينين فزعتين :

– ابقيا معي ! لاتذهبا من هنا .

وصاح اكبرهم بالاصغر الذي ظل ممسكاً بأسماكه :

– اركض الى المزرعة قرب النورج ! اسرع !

ورمى الطفل بيخه وأسماكه ارضاً وسحب قدميه الحافيتين الوضاءتين من الماء . وركض عبر الصفصاف واستمر في الركض نحو المزرعة دون ان يحترس من السلخ الذي كان يتعرض له .

كان النورج مايزال يعوي ، وهو محاط بغيمة من الغبار ، كانت الثيران تجر فرش التبن ، والشوكات الخشبية تتحرك .

وصاح الصغير وهو قادم :

– غرق ! غرق !

وقال له فلاح كان يرمي حزمة على السطح :

– كفى صياحاً .

ولكن استمرار الطفل في الركض وهو يعوي حول النورج ، جعل الرجل يتوقف ليستمع الى ما كان يقول.

وكان الصبي يستمر في العواء:

– غرق !

واقترب الناس وسألوا عمن يتحدث . وشرح الصغير – وهو يبكي ويكفكف دمعه وينتحب من جديد – قدر استطاعته انهم كانوا على الجسر ، وان هذا قرقع وأمسك بأحدم . كان قد امسك به من يده وهو في الماء . وقفز العمال من السطح ، وأخذ الجوف الفارغ يعوي جائعاً . صفق السير صفقة قوية جداً ، واسرع الميكانيكي يقطع الغاز . وصفق السير مرة اخرى ، وسقط أرضاً . ونزل الرجال عن الرحى الضخمة وأصبح الجو صامتاً حتى ليمكن سماع قرقعة وصريف التبن الملتهب وحبات السنابل ، واسرعوا كلهم نحو النهر ، حتى دون ان يدعوا شوكاتهم. وصاح احدم : « كلابة ، خذوا كلابة! » بينا كان آخر يجمع حبالا وهو يجري . وظلت الثيران وحدها في البيدر ، وحبلها يمسك بكرة من القش بنصف ارتفـــاع الهرم . كان الفلاحون والفلاحات يجرون ، ولكن سرعان ما تأخرت النساء . وكان بعضهن قد انخرطن في البكاء ؛ أما الرجال فقد سكتوا متشبثين بشوكاتهم والحبال والكلابة. وصاحوا عندما رأوا الجسر والماء الرمادي: « استعدوا جيداً ! » . ورأوا الصبي من بعد ، وحيداً في المـــاء ، ورأسه يهتز كثمرة القرع . وصاح عندما رأى الناس : « ماما ، ماما ! » . وأغمي على امرأة فوق الرمل وبقيت أخريان بالقرب منها ؛ وسحبتاها الى قرب الماء لتبللا جبينها . وسأل الدارس الذي كان يجري بالكلابة : « اين الطفل الآخر ؟ » . وقال أحدم : « ربما خاف ونجا بنفسه » . وأجاب الصبي الذي اوصل النـــاس : « كان خائفاً ، كانا يسبحان معاً » . وزفر الميكانيكي : « هؤلاء الصبية ، آه من هؤلاء الصبية ! » . وولج الماء وهو يجري ويثير رشاشاً من الماء ويسبح رأساً نحو الجدار الحجري حيث كان الطفل حبيساً . ولم يكن هذا ينبس ببنت شفة . ولم يكن همه غير الانتحاب وشفتاه المزرقتان تضطربان . وسأل الرجال : « الا يكون الآخر قد غرق ايضاً ؟ » . ولكن الصبي كان يدير بسكون رأسه الحليق ويصمت منتحباً وساعلا . ويشرح الصغير الذي كان من قبل يجمع الأسماك على الضفة : « قال لي ذلك وذهبت من اجل ذلك ! » ولم يتوصل اي شخص للحصول على شرح أفضل . ناهيك من انه لم يكن هناك وقت يضيعونه: فيجب انقاذ الطفل الذي كان تحت الجسر . فربما كان الآخر خائفاً ونجا بنفسه . فلا يمكن أن يطالب من طفل ان يبقى في الماء الى جانب آخر يتهدده الغرق في كل لحظة .

ولكن الصبي لم يكن خائفاً ولم ينج بنفسه .

فعندما بقي وحيداً مع رفيقه ، ظل يجري فوق الرمل عاريا تماما ومبللا ، مصغياً الى ضجة مزرعة (خريطنوف) .

وقال لرفيقه :

– لا تخف ! سيأتون من المزرعة . الزم الهدوء !

وأنّ الاخر الذي كانت أسنانه تصطك :

– انني مشرف على الغرق .

وأردف الاكبر وهو مستمر في الجري كأنه فأر وقع في مصيدة :

– الزم الهدوء ! انني متأكد من أن الناس سيأتون .

ولكنه كان يحس في الوقت نفسه بحنجرته تنقبض وانخرط في البكاء بصمت . وجفف دمعه بيديه المبللتين ، وسمع فجأة صفير قاطرة بعيدة .

توقف الطفل ، وقطب حاجبيه وهو يرى الملابس المكومة على الحافة ، والسيخ مع الاسماك . وكان قميصه يشكل بقعة حمراء على الارض . وانحنى بسرعة وعقده حول السيخ ثم أخذ بالجري نحو الخط الحديدي دون ان يكلف نفسه عناء ارتداء ملابسه .

وصرخ الآخر :

– انتظر ! انني مشرف على الغرق !

ولكن الطفل استمر في الجري نحو الخط الحديدي الذي كان هناك . وتسلق فوق القضبان ، وسعى – دون ان يلتقط أنفاسه – أن يضع قدميه الحافيتين فوق العوارض ليتحاشى جراح الحصى المدبب ، وتوغل ملوحاً أمامه بقميصه الاحمر المربوط بالسيخ .

ورأى من بعيد دخاناً يكبر بسرعة ، ثم ظهرت القاطرة من خلال الاشجار . ولكن الطفل لم ينزل عن الخط . غير انه أبطأ فوراً وتوقف ملوحاً بعلمه الاحمر من اليسار الى اليمين ، بينما كانت القاطرة تزداد قامة والقضبان ترن من حوله .

وقفز الى حافة الخط مستمراً في تحريك القميص وسمع صفيراً حاداً : توت ، توت ، توووت ! لاحظوه هناك . وحصل صرير ، واضطرب الجو ، وبصقت في وجه القاطرة التي حاذته بينما كانت جميع مكابح العجلات تعوي . واخيراً توقفت القاطرة الضخمة ، مغرقة اياه في غيمة من الحرارة . وأطل من النافذة رداء رمادي ، وسأل الميكانيكي :

– ماذا هناك ايها الصغير ؟!

وبدأ المسافرون الذين مدوا رؤوسهم الى الخارج يسألون :

- لماذا توقف القطار ؟

بل ان بعضهم كانوا قد فتحوا الابواب .

وشعر الصبي فجأة بعريه ، واستتر بقميصه .

- ان الذي أوقف القطار صبي صغير ، يبيع الاسماك .

وبدأ الناس يضحكون في العربات عندما رأوا القميص المعقود على السيخ الذي نظمت به الاسماك .

وقال الطفل :

- انه في سبيله الى الغرق تحت الجسر !

وسأل الميكانيكي :

- ومن هو الذي يغرق !

وسرى الخبر من عربة لاخرى :

- طفل يغرق في النهر !

- طفل ؟ اين ؟

- في النهر !

- واين النهر ؟

- هناك تماماً حيث ترى شجيرات السرو المائي

ونزل الميكانيكي السلم وقال :

- هيا بسرعة ، ماذا ننتظر ؟

وصيح في العربات :

- بسرعة ، بسرعة .

- طفل يغرق في النهر !

كان المسافرون الأول يجرون نحو الجسر خلف الصبي الذي ظل ممسكاً بالقميص والأسماك ، بينما كان نسوة يقلن من نافذتين متجاورتين أنه لايجوز أبداً ترك الأطفال دون رقابة .

كان نصف من في القطار يتجهون نحو النهر . كان المسافرون يجتازون السهوب واحداً واحداً ، ويمضون في السنابل الكثيفة والعبقة ، راكضين كلهم نحو السرو المائي ، نحو النهر .

وعندما ادركوه ، رأوا فلاحي المزرعة والطفل الراقد على سطح الماء . كان الفلاحون يحملون أحجاراً ضخمة ، ويفكرون في تكويمها ليستطيع الصغير الاستناد اليها . ويمسك أحد الرجال الطفل ، بينما ينقل الآخرون الاحجار الى ماتحت قدميه .

وأخذ المسافرون يحملون الأحجار ؛ وولج بعضهم الماء سائلين كيف حصلت القصة وطمأنوا النـــاس قائلين بأن كل شيء سيكون على مايرام . ستخلص يد الصبي ، فليس الأمر مخيفاً طالما انه حي ! ولكن ما أن شرح المسافرين ان يـــد الصبي أسيرة هذا الفخ الحجري وأن كل وزن الجسر ومنشآته كان ينيخ عليها بثقله ، حتى أخذ هؤلاء يعلقون على التدابير التي يجب اتخاذها ، كان من المستحيل زحزحة قطع الحجارة الخاطة بالاسمنت ، او ازاحة الجسر .

وهكذا احتشد اكثر من خمسمئة من ركاب القطار على الجسر وحافتي النهر دون أن يتمكنوا من القيام بشيء لاخراج الطفل من المـــاء . وكان وهو مزرق من البرد حتى العنق – ينظر خائفاً الى هذا الحشد الذي كان يحتل الجسر والضفتين .

ولم يكن حضور هذا القدر من الناس ، قد بدد خوفه .

كان فلاح المزرعة الى جانبه .

كان – والماء يغمره حتى الكتفين – ينتشله فوق السطح ، ويديه تحت صدره ، رغم أن الحجارة كومت . ويتحدث الفلاح الى الصبي كيلا يحزن ويفكر في خوفه ؛ يحدثه بكل مايأتي إلى خاطره ساعياً ألا يسكت لحظـــة ليمنع الصبي عن الانخراط في البكاء . لأنه سيأخذ هو ايضاً في البكاء عندئذ ، وربما حاكاه كل الناس ، ولاسيا النساء اللواتي يقمن بذلك بكل سهولة .

سأله الفلاح : « هل أنت شجاع ؟ » .

وحاول الصبي أن يبتسم ، وتوصل الى ذلك تقريباً .

– هذا يظهر انك شجاع ، لايمكن انكار ذلك ، ولكن قل لي ... قل لي . هل خفت من الحلزونات

ونفى الصبي ذلك .

ودهش الفلاح :

– وكيف لم تخف ؟ لم أتر إلى قرونها ؟

واجاب الطفل :

– إنها رخوة .

– حقاً أنها رخوة . ولكن ألا تعتقد أنه لونطحت حلزونة أحـــداً بقرنيها ، لأطاحت به أكثر من مئة متر .

وتلألأت أسنان الصبي البيضاء قرب وجهه تماماً .

وأدار الفلاح رأسه ونظر الى قطع الحجارة فوقه الحائطة بالاسمنت ، وكانت قوقعة حلزون ملتصقة بالسور . وقال الرجل : « أترى الى اين صعدت ؟ انها لم تخف من السقوط في النهر » . وأردف بحيوية كأنه توصل الى اكتشاف هام : « انها اشجع منك » .

وظلت ابتسامة الصبي تتلألأ امامه .

وقال الطفل :

– ماذا قطف منها في الربيع !

كان يقول «قطف» لأن الأطفال يقطفونها من العشب كما يفعلون بالفطر أو التفاح . والحلزون يرتمي في الطريق في كل الاتجاهات اولا ، ثم ينام من التعب هنا وهناك حسبما تصادف دروبه وتتدلى قواقعه في الغابة ، وعندئذ يقطف منه الصبية سلالا واكياساً بكاملها .

وقال الفلاح :

– هل أكلت منه ؟

وقال الطفل :

– نعم .

وقال الفلاح بحماسة :

– أعرف كيف . شويته في النار ، أليس كذلك ؟ عندما يلقى فيها يصفر ، يصفر ، يصفر !

وقال الصبي :

– نعم ، يصفر .

وقال الرجل :

– يصفر ، يصفر ، وينتفخ فقاعات ، ثم ينفجر .

– نعم ينفجر .

– أترى اني أعرف ذلك ، لأني شويته ؟ كنا نسلقه كذلك . كان يملأ قدراً .

وقاطعه الصبي :

– مع الرز

– نعم ، مع الرز . انك تعرفه كذلك . انك ذكي ، تعرف كل شيء .

وهز الفلاح رأسه ، وهدده متودداً مبتسماً كأن الصبي كان قد خدعه . كان يعرف المحبة والهيجان دون ان يستطيع التعبير عن عواطفه ، وهذا لايعني أن جميع الفلاحين

لايستطيعون التعبير عن انفسهم ، بل ان منهم – على العكس من ذلك – من يقوم بذلك خير قيام فكثير من سكان (تشير كاز) يحسنون الحديث . وليس من سبيل الى إيقافهم عندما ينخرطون في الحديث ، ولاسيما اذا كان الامر يتعلق بالسياسة . لقد تعلموا أن يتكلموا ، ولهذا وجدت المدارس ... رغم أن الفلاح فكر احياناً بأنه لو عمل بيديه بقدر مايعمل بفمه لارسى شواهق وعجائب ، إلا أنه يعرف الآن ان عليه ان يتكلم . ولم يكن قد تعلم الحديث ، كان قد تعلم ان يملأ جوف النورج . كان يملؤه تماماً – بانتظام – موزعاً القمح والحزم كما كانا في السنابل ، وكان الجوف كذلك يغني بنظام دون ان يصفر او يسعل.

واستأنف الرجل محادثته مع الصبي . عاد الى اللحظة التي كان قد قال له فيها ان الحلزونة تستطيع ان تنطحه بقرنيها وتطيح به مئة متر .

كان النهر يتأرجح دون ضجة ، ويلعقها مكتسباً طعم الصبي والفلاح . ويتذكر الدب مع الرمل ، والندبات في شفتيه وعينيه ،وقطرات الماء التي شربتها التيوس،وفتيات (تشيركاز) ، وجفاف ريش الطيور التي كانت تمس صورتها في مائه .

وأحيا الامل قدوم عربة اطفاء في جولة تجربة . فقد وثب القائد بسرعة فوق الجسر وسأل عما حصل . وشرح له الأمر ، فأعطى أوامره مباشرة . اخذ رجال الاطفاء يجرون ، ولمعت خوذهم في الشمس ، وبسطت الخراطيم ، وبدأ محرك العمل ، ومددت توابع المضخة الطويلة تحت الماء ، وبينما كان الناس حول المضخة مشغولين ، بدأت العمل ناضحة كمية هائلة من الماء .

إن رجال الاطفاء اهل عمل . لقد جلبوا فؤوساً طويلة القنا وشبكات، وباختصار كل ماتتزود به فصيلة إطفاء . ولكنهم سرعان ما أدركوا ان المشروع غير معقول . فما كان للمضخة أن تجفف النهر . بل انه لو تم ذلك ، فان الطفل يظل حبيس العش الحجري.

كان نصف الجمهور في النهر ، وبعضهم يسأل عما اذا لم يكن من الأفضل استدعاء الأب . ولكن فلاحي المزرعة أجابوا بأنه رئيس ورشة في الطريق رقم ٣ ، وهو غائب عن القرية ، ولا يمكن بأية طريقة أن يعرف أين يوجد .

كان الصبي يرتاح على الاحجار المكدسة تحت قدميه . واطمأن عندما رأى هذا القدر من الناس حوله ، لأن مثل هذا الجمهور سيحرره حتماً ويخرجه من الماء . لقد برد، وأسنانه تصطك ، ولكنه كان يضغط فكيه ويدير عينين قلقتين ، مبهوتاً بكل هذا الجمهور ، يساوره شعور غامض بأنه مذنب .

ولكن الطفل أخذ وسيطر عليه الخوف ، عندما اكتشف عدم جدوى كل محاولات

انثناله ، وعندما أخذت التدابير تقل ، ثم لم يعد هناك شيء عندما أوقف رجال الاطفاء ضجة المضخة وأصبح الجسر والضفتان صامتة حتى ليمكن سماع صراخ الحصى في السهوب وصريف الصراصير في الصفصاف . كان يحس بأن أحداً لم يستطع أن يأتي لمساعدته وأخذ يبكي وينتحب بصوت منخفض جداً ، وهو ملتصق بالسور ووجهه متشنج . وأصبح لسحنته الصغيرة المتقلصة قسمات عجوز حلق حلاقة غريبة بالماكينة. وكان يشعر بنفسه مسمراً هنا ليموت تحت أنظار كل هؤلاء الناس الذين يوحدهم قلق مشترك وعجز مماثل . كان ينتحب ، ورغم أنهم يصيحون به : « لاتبك ! لاتبك ! سيصبح الأمر على مايرام ! » ، فهو يستمر في البكاء . ويرى بوضوح أن النساء يبكين على الحافة ، وان الرجال يبكون تحت الجسر ، بل ان الدمع في عين قائد فصيلة الاطفاء وهو يرى عناقيد الناس الملتصقين بالجسر . ويرقص الفلاحون قدماً فوق قدم بفوضى ودون مهارة ، كأنهم تعبوا . وتخنق امرأة نحيبها بيديها ، ولكنه يفلت ويعلو في الصمت كأنه انين .

وكانت الحلزونة تستمر في النوم في ليل قوقعتها ولايحيي الضفتين الصامتتين غير نداء الحجل ، وهو ينحدر نحو النهر ويصطدم بالجسر ، ويمكن الاعتقاد بأن كل طيور السهوب والبيادر ، الواثبة فوق الأحجار أو الصفصاف على موعد مع النهر ، وصيحاتها تعلو على بعضها في الرنين :

– زرزيق ، زيق !

– زيق !

– زرزيق !

– زيق زرزيق !

وامتلأ الفضاء بين الأرض والسماء المبيضة ، رويداً رويداً بصياح الطيور ، وكأنه كل فرد في الجمهور الساكن في هذا الجو أخذ تهديداً صارماً بالصيحات ، يشعر بأنه مسمر في مكانه ، قلقاً على الحركة المستحيلة التي ستبطل السحر المأساوي .

إلا انه بطل .

بطل وعاد العالم واقعياً . وأخذ الناس بالحركة من جديد على الضفتين ، محطمين السحر القدري . كانت أم الطفل تجري حافية القدمين ، وافسح لها الجمهور طريق المرور . وغاب صياح الحجل ، وطغى عليه صياح الأم .

تركت اليابسة وألقت نفسها في الماء لتعانق الطفل منتحبة : « يابني ، ياولدي الصغير ! » .

كانت تختنق وتبتلع الماء ؛ وتعوي تحت قوس الجسر . وأسرع الناس يسحبونها إلى الرمل رغم صيحاتها . ولكنها تقاوم وتريد أن تلقي نفسها في الماء من جديد ؛ وتريد ان تشرب كل هذا النهر الهادىء الشفاف الذي يسجن ابنها .

وأخيراً تحررت من الأيدي التي كانت تمسكها ، واخذت تنظر إلى الناس نظرة حيوان بري ، سابرة وجوههم المغفلة ، متنقلة من الواحد إلى الاخر ، وهي نصف مجنونة من الألم والقلق . ثم اخذت في مهاجمتهم وضربهم بقبضتيها . وتفقد اتزانها ، وتقبض على أول كتف تلقاه وتتوسل : « أنقذه ! أنقذ إبني ! يارب ! يارب أنقذ ابني ! » وينظر الاخرون إلى الرمل والنهر ـ وقد غضوا أبصارهم ـ ويتأرجحون من قدم لأخرى . ويصيح بعضهم : « أيتها المرأة ! هدئي روعك ! سيصبح كل شيء على مايرام ! »

واستأنف الجمهور همهمته ، رغم أن أحداً لم يكن يدري مايفعل . وذهب الناس من جديد إلى ماتحت الجسر ؛ عدد كبير من الناس حتى يكاد المرء لايرى الماء . ولكنهم ظلوا بعد وصولهم الى هناك عاجزين ، وحاولين تهدئة الطفل الذي ازرق من البرد وكأنه أفرغ من دمه بما امتصه من الماء .

وفجأة تحدبت الأم وهرب الدم من وجهها وتشنج ؛ وأصابعها تنبش الرمل . واقترب منها بعض الأشخاص ورشوا الماء على وجهها بينما كان غيرهم يدلكونها . انها بحاجة الى وقت طويل لتستعيد وعيها . وجلست ـ مجدوبة ـ على الرمل ، وجذعها يتأرجح على المدى الطويل من الأمام الى الخلف ، بينما عاد دمعها ينهمر على وجهها .

كان النظر الى عيني الفلاحة المليئتين باليأس مخيفاً ؛ وهي تردد بنغمة الترتيل وجسمها مستعد لأن يعدو للسقوط على الحافة : « انقذه يارب » .

واستأنف الناس حركتهم على الضفتين والجسر . كانوا ينتقلون على شكل جماعات تنفسخ الى وحدات أصغر وتنزل الى الحافة لتصعد من جديد ، متصالبة مع أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس . ويقومون بهذا دونما هدف ، لأنه يجب القيام بشيء ، ويراقبون بانزعاج عذاب الأم التي صحت واتجهت نحو الجسر .

لقد بلبلت أولئك الذين في طريقها ، واصطدمت بالسور الحجري ، ثم وجدت في نفسها فجأة القدرة على تهدئة الطفل الذي كان ينظر اليها بعينيه اللتين بقيتا جافتين . وحدثته بحنان مثلما كانت تفعل عندما توقظه ليقود قطيع الجواميس الى المرعى .

كان جميع الناس على الضفة بـلا حراك يستمعون الى حديث الأم ، ثم ارتفعت

أصواتهم واحداً واحداً – ولا سيا النساء – واختلطت بصوت الفلاحة لتهدئة الصبي . ولكن كلما تكلمت الأم أحسوا بيأسها ، لأن حديثها لم يكن غير كلمات ، والحجر أصم عنه لا يطلق سراح الطفل .

وكان النهر أيضاً أصم عن حديثها .

– أنقذه يا رب !

هل كان لهذه الكلمات ان تؤثر في الحجر البارد ؟ هل لها ان تؤثر في هذه الكتلة من الاسمنت والحديد الموضوعة فوق النهر ؟ واستأنفت الأم التي خارت قواها من جديد « يا رب ، يا رب ! » وأمسك بها رجلان ليضعاها على اليابسة . حركة ، حركة ! مريع ألا يفعل المرء شيئاً ، مريع أن يبقى مكتوف اليدين ، مريع أن تنظر العيون الثابتة الى بقعة ساكنة فوق الماء ! لو كان هذا حلماً ! انه لمريع هذا الكابوس على الجسر ! استيقظوا ! استيقظوا ! يجب التحرك ، يجب العمل ، ما أهول سكون الانسان وتوقفه عن العمل !

وامتلأ الجو بضجة محركات وجنازير . ورأت الضفتان دخاناً يصعد نحو السماء ، بينما كان هدير المحركات والجنازير يتقدم نحو النهر . وبدت الدبابات من خلال الاشجار ، ومدافعها عيار ستة وسبعين مليمتراً وعيار مئة مليمتر أمامها وانتشر الفوج المدرع لاحتلال نهر (تشيركاز) . وولجت الاسلحة الأولى الماء . وكانت الاوائل من أسرع اليها . انها تجري نحو الآلات وقد أسمعها بضجيجها وعزمها ، وعندما رآها اهل الضفتين انطلقوا في أثرها ، وراحوا يلوحون ويصيحون ليسبقوا ضجة المحركات ويوقفوا هذا الجيش . وعبرت بعض الدبابات الضفة الأخرى واخذ الماء يقطر منها . وخرج دخان ازرق من مداخنها ... وتوقف بعضها واستدارت نحو الناس ، وقد عجبت كيف توقفها أيد عزلاء وصيحات .

وقفز جنود الى الأرض . وتداول ضباط الامر ، بينما ظلت الآليات تأتي من الحقول لتتوقف عند الضجة . الطواقم تنزل وام الصبي تجري من جماعة لأخرى ، تتوسل اليهم وتشدهم من نطاقاتهم الجلدية . وتوقف الفوج المدرع قرب النهر ، واجتمع كل رجاله تحت الجسر . وحاول الجنود ما كان الآخرون قد حاولوا قبلهم .

ولكن عبثاً .

كان الجيش عاجزاً كما لو كان اسيراً . كانت الدبابات صامتة على الضفة ، ومدافعها فاغرة ببلاهة . من الحديد البليد . لم يستطيع الحديد البليد ان ينقذ احداً !

وفي هذا الوقت اقلع الفريق بطائرته من (وشنة رقم ٣) ليرى الامر عن كثب مغتاظاً لاستعصاء احتلال الجسر والنهر .

وملأ قدوم الطائرة الناس املاً .

واتجه الفريق نحو الجسر ، سائراً فوق الرمل الرخو . وكان الضباط يسيرون وراءه وهم يصلحون هندامهم . ونظر الطفل الى الفريق نظرة هلعة ونظر الفريق الى الطفل بصرامة فريق توقف جيشه . وحاول الطفل ان يبتسم بشفتيه المزرقتين .ولكن ابتسامته كانت مغتصبة . وحاول الفريق بدوره ان يقوم بالأمر نفسه ، ولكن الابتسامة لم تكن طبيعية في وجهه المتعب .

وسأل الفريق وقد ساوره شعور غامض : « ولكن لماذا يبقى في الماء ؟ »وعندئذ اخذ كل العسكريين والمدنيين –المتجمهرين على ضفتي نهر (تشيركاز) وفوق الجسر وعلى الدرابزون – يشرحون للفريق لماذا بقي الطفل في الماء . كان اكثر من خمسمئة صوت يصرخون ويشرحون ، محدثين ضجة اكثر من الطائرة التي اوصلت الفريق . كان كل منهم يحاول ان يعلو بصوته على الآخرين ، مؤكـداً انه الوحيد الذي يستطيع ايضاح القصة .

وكان الفريق الواقف فوق الرمل ، ينظر تارة الى الطفل ، وتارة الى الجمهور ، وتارة الى الدبابات الساكنة والضباط والجنود ، ماذا عساها ان تفعل هذه الدبابات بمدافعها المصوبة بوحشية نحو الأفق ؟ ماذا عسى ان يفعل الجيش ؟ ظلت ذكرى بيانات البارحة طازجة في ذاكرته ، ولكن الجيش قوة تدمير ، ولا يمكنه ان يعمل الا حيث تكون هناك معركة . ولم يكن هنا ميدان معركة . النهر النائم ، والضفتان النائمتان ، والحرارة والجسر الثقيل . فمن ترى يحارب الجيش ؟ والى من يرسله الفريق ؟

الا انه يجب العمل . وتقرر انشاء سد . فلو أوقف تدفق المياه وتضح رجال الاطفاء الباقي ، لبقي الطفل في اليابسة .

كان الفريق يفكر « في اليابسة ، في اليابسة » ، ووريد يقرع صدغه .

واستدعى الطيارين وامرهم باحضار الطبيب العسكري . وارتفعت الآلة غامرة الجمهور بالرمل والغبار ، ثم اتجهت نحو (وشنة رقم ٣) ، حيث يوجد القسم الصحي . كان على الطبيب ان يحضر ، وكان الفريق يعرف لماذا .

وقامت الدبابات بنصف دورة ، وولجت النهر تتبعها جرارات مفرزة الاسناد . وربطت حبال من الفولاذ بشجرات السرو ،التي جرت في الماء بعد اقتلاعها لتكوين الجسر.

وجرى الفلاحون الى مزرعة (خريطنوف) ليأخذوا كل ما كان ضرورياً لسد نهر . كانت أدواتهم أصلح للعمل في الارض ، وسرعان مابدأت الرفوش تلمع والرمل يصطك . وألقيت في الماء أغصان وحزم كبيرة من العشب ، وبدأ السد من طرفي النهر مهدداً رويداً رويداً باغلاقه . وكان الفريق واثقاً من جيشه ، كان متأكداً من احرازهذا النصر الصغير ، ولو اقتضى ذلك شرب الماء أو ازالة النهر .

وظل النهر يجري بهدوء ، واثقاً من معينه الذي لاينضب . كان يحس بتفجره على طوله حتى هذا المكان ذاته . كان يعبث بالسد وسيقان الرجال وبغسل العشب وجنازير الدبابات .

وكانت ترتفع غيوم دكناء في الاعلى ، في جبال (تشيركاز) . وتتكتل زاحفة زحفاً وئيداً ومدخرة الكهرباء . وكانت السماء قد تعبت في ضخ رطوبة الارض .وكانت هذه تجذبها بدورها لتستعيد نسغها . كانت السماء قد اخذت كثيراً منه . فقد اصبحت مشبعة بالرطوبة وعليها ان تريقها على الارض . واذا ناءت هذه بحملها فستتململ بكل أنهارها ، بينما ترسل الغيوم برقها وتصعق الاشجار وتهز السماء برعدها .

وأدارت الدبابات مدافعها عيار مئة مليمتر نحو الغيوم . وكانت هذه تنخفض رويداً رويداً ، وتسمع من بعيد الاصوات الأولى لهزيم الرعد ، بينما ينحدر نحو الجبال سيل عرم متوعد ، وفهم كل الناس أنها بدأت تمطر هناك في النبع . وكان الفلاحون قد لاحظوا ان النهر يصل الى قوائم الجسر عند هبوب الأعاصير .

وقال الفريق : «سننتهي قبل ذلك »

وكلما كانت الغيوم تنخفض وتتدحرج فوق بعضها على هزيم أغنية متوحشة ، كان ايقاع انشاء السد يتسارع والأقدام تتحرك .

وفحص الفريق ماتم انجازه ، وراقب السماء ثم الجسر . ولاحظ ان رجال الاطفاء مددوا الخراطيم ليكونوا مستعدين لنزح الماء عند قيام السد . وسار على الرمل ، ثم ولج الماء ، وحاول الابتسام للصبي الساكن ، رغم اشتداد قرع الوريد لصدغه .

وسأله الفريق ، وهو يعب دخان لفافته بشراهة تثبت خديه :

« هل انت شجاع ؟ » .

كان نفس السؤال الذي وجهه الفلاح للصبي .

فرفرف هذا جفنيه وأومأ برأسه ايماءة ضعيفة لأن الماء كان يصل الى ذقنه ، كان يريد أيضاً أن يبتسم للفريق ، وكان يجب أن تعني هذه الابتسامة: «اني شجاع » .

– هل امتطيت دبابة من قبل ؟

وكان ينظر الى ثلاث دبابات تناور لتعبر النهر .

وأجاب الصبي :

– لا .

وكان هو كذلك ينظر الى الدبابات .

– ولكنك امتطيت جاموساً ؟

وضحك الصبي :

– نعم ، حتماً !

وقال الفريق وهو يلتفت :

– انك ترى أني أعرف ذلك . فقد قمت انا بذلك من قبل . ولكن الجواميس لاتسير جيداً . انها تخض .

وأيده الصبي :

– نعم . إنها تخض .

كان الفريق قد امتطى الجواميس حقاً ، ولعله يتذكر أيام كان في عمر الصبي ، ورأسه حليق بالماكينة – نفس الماكينة التي تستعمل لجز الماشية – وقدماه حافيتان ، وأخمص القدمين مليء بالأشواك . كانت امه تريق ماء على الطفي وترغمه على أن يضع قدميه في البخار كيلا تصابان بأذى وكي تلين الأشواك . وكان يكابر على اللظى رغم الدمع الذي يسيل من عينيه .

وقال الفريق :

– قليلا من الصبر . سنوقف الماء ، ثم نمتطي دبابة . انظر ! هذه الكبيرة .

وسر الصبي لفكرة امتطاء دبابة .

وأردف الفريق :

– او ربما الطائرة . أتريد ؟

وأجاب الصبي :

– آه ، نعم ! ولكن أيدعوننا ندخل ؟

ودهش الفريق :

– أين ؟

وأفصح الصبي :

– الى الطائرة .

وكان دور الفريق في الابتسام ، فقال :

– حتماً ، فالملاح صديقي . ولكن ألن تخاف ؟

وكان الفريق ينظر الى الجرارات وهي تقتلع اشجار السرو وتجرها نحو النهر بالاستعانة بالحبال . كان يسمع صوت الفؤوس وهي تقطع الخشب ، والناس وهم يغرسون الاوتاد .

كان الصبي يرى كذلك سقوط الاشجار وجذورها في الهواء ، كانت تتأرجح وتئن ثم ترقد في الماء ، ويلقى فوقها الرمل والعشب لسد النهر . واضطرب الماء من تحته ، وبدأت تنطلق منه رائحة الجذور والنسغ .

وقال الصبي :

– لن أخاف .

وأردف الفريق وهو يلتفت:

– سنرى .

وأكد الطفل :

– لا ، لا ، لن أخاف .

كان يعلم انه لن يخاف أبداً لو امتطى الطائرة !

وقال الفريق وهو يشعل لفافته الثالثة ويتطلع الى السماء بعصبية :

– سنأتي وسنرى فيا اذا كنت شجاعاً .

كان ينتظر الطائرة .

وكان يقول لنفسه بأن الانسانية خلقت الدبلوماسية ومنظمة الأمم المتحدة والقنبلة الذرية ، ولكن لم يوجد شيء لانقاذ طفل . فلا الدبلوماسية ولامنظمة الامم المتحدة ، ولا أي شيء ، يستطيع أن يأتي امراً .

وقال الفريق لنفسه : فعلينا نحن ان نعمل ، ولو اقتضى الأمر ان نجعل النهر يشب . والطريق ! والجسر ! سنقلب كل شيء – العالم برمته ، الطبيعة الحية والميتة – لانقاذ هذا الطفل ! واذا اقتضى الأمر ، فسنطرد هذا الاعصار المعلق فوق جبال (تشيركاز) ! وكل هذا في سبيل الهدف الوحيد ، ألا وهو انقاذ الطفل. سنصبح مثل الأرض الدؤوب التي تدور نحو الشرق دائماً ، ليل نهار ، في جحيم الحروب وفي هدوء السلم .

دائماً نحو الشرق ، نحو الشمس ! لتنجو بنفسها ! لتخرج من ظلام ظلها .

لم تأت الطائرة ، وظل نصف السماء الشرقي أبيض ، كأنه معدن منصهر، سماصيف يشوي فاكهة الأرض .

وقال الفريق :

- أرى أنك شجاع . فهل ستخدم معي عندما تكبر ؟ هل تحب ذلك ؟

وقال الطفل :

- طبعاً .

وكانت أسنانه تتلألأ في ظل الجسر . سيخدم في امرة الفريق .

وأخيراً كم النهر . واصطدم بالعائق ، وتلمسه بخطمه . كان يبحث عن الشق الذي سيسمح له بالتسرب ، بلطف أولا ، ثم برمته ، موسعاً الصدع ومخرباً السد ، كما كان يتأتى له ذلك دائماً .

ولكن لم يكن هنالك من شق . وعندئذ أدار النهر خطمه ، وتسلق الضفتين ، ورقد على عشبها ، وتلمس الارض ، ثم انثنى ليواصل دورانه وبحثه . كان مثل ثعبان ينساب ببطء ، باسطاً فقراته ، مقلصاً حلقاته ، مستعداً للوثب . كان واثقــاً من قوة جسمه . وسيشعر بانتفاضة عاجلا ام آجلا . وعندئذ سيتحطم ويتلاشى كل شيء وسط صفيره ونزوات جسمه الضخم .

ولكن النـــاس المسلحين بأدواتهم ، كانوا يقفون باستعداد الى جانب الحاجز ، متجمهرين قبالة بعضهم . وكانت الجرارات تشخر على الضفتين ، مقتلعة أشجاراً جديدة ؛ والفؤوس تعمل . وكان الجميع - يقظين وحذرين - يستعدون للعمل ضـــد هذا الثعبـــان الكبير الذي كان رأسه عند الحاجز بينما كان جسمه الذي يغيب بعيداً يتضخم تضخماً سحرياً .

ثعبان هائل !

ولكن الناس سيرون كيف يقتل نهر !

ولكن النهر بنفسه لم يكن في عجلة من الامر . كان وهو كسول ونائم ، يستجمع قواه ويبسط فقراته .

أما استيقاظ النهر فهو غضبه .

وكانت السماء في عون النهر . كانت تعصف ، مهرقة على الجبال سيلها البـــارد ، والطوفان يجري فوق السفوح ، ويرتمي في الاحواض الحجرية ، ويدمر كل ما في طريقه . فليس صحيحاً أن قوة النهر في نبعه في الجبل . ان قوة النهر في السماء . هنـــاك نبعه . وهاهي السماء تنخفض الآن رويداً رويداً ، ولن يلبث جحيمها أن يهرق في النهر .

عودي الى الجبل أيتها الغيوم! لا يأخذنك الغضب أيتها الغيوم ! فبئس الناصح الغضب.

فهل روح الغيوم فاسدة؟ أم انه يثير حار ؤيتنا نوقف النهر ؟ ولكننا اذا استخدمنا القوة فلأننا لم نفلح في اقناعه . وكنا بحاجة الى كثير من الاعوان في سبيل ذلك . لقد شعرنا بعجزنا فاستدعينا قوام . وأوقفنا بهم النهر ! ونعرف أنه يكرهنا لذلك !

ولكن اذا كان النهر قوة ، فلا يمكن ايقافه الا بالقوة ، أليس كذلك ؟

عودي الى الجبل أيتها الغيوم !

دمك هادئاً في سريرك ايها النهر !

أيها الثعبان ، لا تنتفخ ولا تتأهب للوثب ، لاننا عندئذ سنجفف دمك الزلال حتى آخر قطرة !

ابق في حجرك ايها الثعبان !

ابق هناك يا ابن الجحيم !

كانت الدبابات الداكنة تعكس مدافعها الداكنة في النهر . كانت كآبة الجو تنعكس على معدنها . من أي عصر ، من اي عهد وتي خرجت هذه الحيوانات المصطفة بلا هدف على طول النهر ؟ هل تستطيع محركاتها التي تقوم مقام قلبها ، والتي كانت لها قوة الف حصان ، ان تؤدي شيئاً ما ؟

كان هناك محرك صغير يهدر فوق الجسر ، انه محرك رجال الاطفاء الذي يعب الماء من الانشاءات . وكاد الطفل يصبح على اليابسة ، ولكنه ظل أسير الفخ .

كانت المضخة تعب وتبتلع بقوة وتبصق ، ولكن المحرك لم يكن يسمح للخراطيم بالاستراحة . وظهرت اول طبقة من الطمي بأسماكها التي تخبطت واختنقت في الهواء الطلق.

كانت ثقوب وثغرات طبقات الجسر تهدر ويخرج منها ماء يصفر ويخر . ولم يكن الماء الذي يملأ الثغرات وتجاويف قطع الحجارة ، قد رأى الشمس ابداً . وها هو يخرج الآن ليتلاشى في الطمي والطين .

وكانت الطبقات المفرغة تعرض ثوب العشب الاخضر .

وجلبت ملابس الطفل . وناولته امه سراويله وغطته ليستطيع ان يتدفأ . وكانت تكلمه بصوت خافت ويهدوء ، لانها تعرف شيئاً يجهله ، وتنظر الى السماء باستمرار . وكان الآخرون ينظرون الى السماء ، ولكن ليس نحو الجبال ، بل نحو الجهة الاخرى ، الجهة التي مازالت صافية .

كان هنـــاك شعور كئيب يقبض قلب كل فرد ، واخذت الحادثات تتوقف رويداً رويداً .

واخيراً سمع هدير الطائرة . وحامت على ارتفاع منخفض من أشجار الصفصاف وظلت معلقة فوق الجسر ، وتأرجحت واستعدت للهبوط . ووسع الجمهور الحلقة ، وقبل ان تتوقف المروحة قفز من الحجرة ثلاثة رجال . اتى اولا الطبيب العسكري بقميص ابيض يخرج منه حذاؤه . وكان معاوناه يحملان أكياساً ومحفة خفيفة . واوقفت المروحة صفيرها ، وخروج في الصمت نحيب من الجمهور .

وصاح الفريق : « هيا ايها الشجاع ، استعد ، سنمتطي الطائرة الآن ! »

ولكن لماذا كان الفريق يثير كل هذه الضجة حول هذا الشجاع الصغير ؟

ونظر الصبي الى الطبيب ، وصاحبي المحفة ، وخلفهم الفريق ، وسمع كذلك خرير طبقات الجسر ودخول الهواء الى الثغرات الخلفية عبر تجاويف العش الحجري الكبير .

وتضخم الانين : كانت دموع الام .

وفجأة دوت على الجسر صيحة :

— سيقطعون يدك ! امنعهم ! امنعهم !

كان الصبي الذي اوقف القطار . كان يجري فوق الجسر بين صفين من النـــاس ويصرخ بملء فيه : « امنعهم ! »

وأدرك واغلق فمه . كان يركل بقدميه ويلكم بقبضتيه ، ولكن كان هنـاك كثير من ازواج الايدي تمسك به .

وبدأ الناس يديرون ظهورهم للنهر كيلا يروا عمل الجراح .

وتململ النهر خلف الحاجز كأنه يود أن يثور ، ثم اجتاحه انين عندما سقط في جحره . وكانت الاسمـــاك تقفز مستنشقة الهواء ، عند قدمي الصبي ، ثم تسقط فوق الحجارة او في الطين .

لن يخدم الطفل في امرة الفريق .

فبتورو الايدي لا يصبحون جنوداً .

وتمتم الصبي « آ ه »

كان خائفاً ، وفجأة احس بأنه اصبح خفيفاً ، وبدا له انه تحرر كما تخرج الحلزونة من قوقعتها .

وكان هذا الاحساس نتيجة العرق الذي غمر جسمه . وانطلق الطفل يسير فوق الحجارة الرخوة - بعد ان تخفف وتحرر — بينما كان الطبيب ومعاوناه يفتحون الحقائب الموضوعة فوق المحفة .

وكفت طبقات الجسر عن الخرير .

وفي لحظة واحدة ، اصبح العالم خالياً ، كأنما جمد .

دوت ضجة في هذا البرد ، في الصمت الجليدي . كانت تشبه طقطقة الجليد فوق النهر ، في الشتاء . فعندما ينتفخ الجليد يطقطق ، وتجري الضجة فوق النهر ، على طول الصدع الرقيق الشفاف .

كان الجسر قد زحزح للمرة الثانية قطع حجارته المحاطة بالاسمنت . وشعر الذين كانوا فوقه ، به يضطرب تحت اقدامهم :

« ماذا يجري ؟ »

وصاحوا : « انه الجسر ، انه الجسر »

كان الصبي يضع يديه على ركبتيه ، ولا يستطيع ان يفهم انها حرة وانه افلت من الفخ الحجري . وما لبث إن شعر بالفريق يرفعه ويقبله ، بينما كان الجمهور يعوي . وحل التوتر فجأة ، واصبحت الضجة تصم الآذان .

كان بعضهم يصيح : « دخل هواء الى الانشاءات »

ربما كان الانزلاق الجديد نتيجة الهواء الذي كان يدخل الى التجاويف العميقة والمظلمة .

وحمله الناس ، وانتقل من ذراع الى ذراع ، وقد بيته واضاع صوابه هذا الجمهور المهووس ، هذا المعرض المرح الدائر حوله . وقبلت امه وجنتيه ، وعينيه ، وعنقه ، ويديه ، يديه الاثنتين ، ولكن تلك التي ظلت تحت الماء بصورة خاصة ، هذه اليد الطفولية الصغيرة التي احتكرت افكار وعواطف المسافرين في قطار برمته ، وعربة اطفاء ، وفلاحي المزرعة ، وفريق ، وفوج مدرع ، قهروا نهر (تشيركاز) .

كان الناس يحدثون ضجة على الضفتين والجسر ، ويعجب كل منهم لرؤية نفسه هناك ، مع جمهور غير متجانس في هذا المكان ، وقد اوقف كلاً منهم هذا الصبي الحليق شعره بالماكينة ، والحافي القدمين ، والمليء ببقع الكلف ، كأنه ضفدع على الرمل الملتهب. وكان كل منهم يجد في هذا تصرفاً صبيانياً ، وحماقة ساحرة قد تميته من الضحك .

وقدحت الدبابات الاولى محركاتها ، واستأنفت السير .

واعلن الفريق « وسنرى الآن فيما اذا كنت شجاعاً »

وقاد الطفل فوق الرمل نحو الطائرة .

وفتح الطيار الباب ، وحمله من إبطيه وادخله صدر الآلة الرطب . ولاحظ الفريق وهو يعود ، الأم وسط الجمهور وكانت تبكي دون ان تجفف دمعها ، كما لاحظ الفلاحين

المسلحين بخوذهم وكلابهم وحبالهم ، والمسافرين في القطار ، والضباط الذين يحيون ، والجمهور على الجسر مستنداً الى الدرابزون . ورأى هناك ، بين هذا الجمهور الصبي الآخر صاحب القميص الأحمر . واشار اليه بيده ، واسرع هذا دون ان ينتظر نداء ثانياً ،وكان يجري بكل ما اوتي من قوة ، حتى ان قدميه الحافيتين كانتا تدقان مؤخرته .

ومرق ، وهو يلهث ، الى الآلة التي كانت محركاتها تدور من قبل ، وقعد الفريق بين الصبيين . وبعثرت المروحة الرمــل ، وارتفعت الحجرة وظلت معلقة في الهواء . وتلألأ النهر تحت بطنها ، وارتفع من حجره ليعض هذهالآنسة التي تحوم فوقه ، ثم ظهرت شجيرات الصفصاف ، وفجأة انقلبت الأرض وانقلب الجسر بما عليه من البشر ، وكذلك النهر والجيش وكأنهم على منحدر .

ولن يلبثوا ان يعودوا سيرتهم الأولى .

ورسمت الآلة دائرة اخرى ، واخذت تحوم فوق الريف وقد عـلا شخيرها . وكان الطفلان ينظران وجيهاهمــا مستندتان الى النافذتين ، وصدقوني انهما كانا بعيدين عن الخوف !

كان الفريق يضع لفافة مطفأة ، لأنــه لا يمكن التدخين في الطائرة العمودية ، ويفكر بشؤونه . ربما بعمق الحياة ، وربما بالبيانات العملية ، وربما بالحرب.ان للضباط الامراء كثيراً من الافكار ، وكثيراً من الهموم ، وهذا يحمل في قلبه فوق ذلك قلقاًعلى هذا الطفل .

اذا كان لمصير طفل ان يوقف جزءاً من الانسانية ، فان لمصير الناس ان يوقف العالم بأسره ، وان يبين له الاتجاه الذي فيه سلامته .

والحق ، انه ليس هناك غير اتجاه واحد .

ونظر الى ساعته ، تم الانتصار على نهر (تشيركاز) في ربع ساعة . وكانت الدبابات تتجه نحو الجنوب ، ومدافعها المتجهة الى الامام تشرئب الى السماء ، وخرست المدافع ، لأن السماء لم تكن في خطر . ولكن الآلات تتابع سيرها على ايقاع آلاف الاحصنة التي تقوم فيها مقام القلب ، في أوج هذهالظهيرة المحرقة ، في ظهر العالمالقائظ.

التصفية

مسرحية في أربعة فصول

نواف أبو الهيجاء

الفصل الثالث

المشهد (١)

« قبل ان ترفع الستارة ، تسمع اصوات مختلطة . ضجيج عارم يعم الصالة . يميز الجمهور صرخات نسائية ، وضحكات عربيدة ، ثم بقعة ضوئية يظهر على اثرها المؤلف (١) والى جانبه المخرج وهما يطلبان من الجمهور الهدوء »

المؤلف (١) : سيداتي ، آنساتي ، سادتي : ان ماحدث لكارثة حقيقية فعلاً! ولكن تيودور تمرد على اوامري وارادة المخرج أيضاً .

المخرج : هذا صحيح ، ايها الأخوة ، لقد تمرد . بذلنا قصارى جهودنا لايقافه عند حده . لقد امتزجت الدماء بالخشبة حتى بات الأمر يتطلب سنوات من الجهود المضنية لتنظيف خشبة المسرح من هذه الدماء ، بل ولكي لاتزكم روائح الدم انوفكم الكريمة .

المؤلف (١) : صحيح انني ، انا المؤلف رقم (١) ، كنت خالق شخصيتي المفضلة « تيودور » ؛ إلا انكم رأيتم كيف يتمرد المخلوق على خالقه احياناً .

المخرج : اعدكم ، ايها الاخوة والاخوات ، بأن اعيد الاوضاع الى سابق عهدها . لقد [يدخل المؤلف الأساسي ويقاطعه]

المؤلف الاسامي : لاتستمعوا اليها . انها مضللان . سأريكم الآن الخشبة لتروا بأم اعينكم ماذا جرى . هيا [للمخرج والمؤلف(١)] لندع الجمهور يتابع الاحداث بصورة مباشرة دون محاولة التأثير في عواطفه .

[يخرجون]

« ترفع الستارة عن مشهد الفصل الأول ذاته . في القسم العلوي تقف الجوقة في ذهول . في القسم الايسر احتل تيودور والممثلون الأربعة جزءاً كبيراً ، بينما يقف الآخر رقم (٣) في الوسط وقد ظهر الجندي – ظهره للجمهور – في حالة يرثى لها . يده اليمنى مربوطة بعنقه بقماش ابيض بانت عليه بقع دماء . المؤلفون ، (١) ، (٢) ، (٣) والمخرج في القسم الايمن بين الآلات يشربون الانخاب بصمت . ما أن ترفع الستارة حتى يهب كل من الآخر رقم (١) والآخر (٤) واقفين في الصالة »

الآخورقم(١) : يا لهول ما حدث ..

الآخورقم(٤) : في الحقيقة هذه كارثة ما بعدها أخرى .

تيودور[مقهقهاً] : في خشية من الحراس . (مقهقهاً ثانية) .

الممثل(٢) : [للآخر رقم (٣)] : لاتريد مغادرة المسرح، ها ؟!

الآخورقم(٣) : ستري عاقبة ما حدث .

تيودور : الآن نستطيع اجراء التمارين العملية لتقديم مسرحيتنا . ولكن ، وقبل كل شيء ، مد لي ايها الجندي يدك .

الجندي : صه !

الآخورقم(٣) : سترى أيها اللعين .

الممثل(١) : ما الذي سيراه ؟ ألا ترى انك مكبل ولا تستطيع شيئاً .

الآخورقم(٣) : [يصفع الممثل (١)] : خذ إذن .

تيودور : [يهرع ويمسك بخناق الآخر رقم(٣)] : سوف اهشمك ايها القذر .

الآخورقم(٤) : الآن سوف أتدخل . [يسير ثم يختفي خلف الكواليس]

الآخورقم(١) : ياهول ما حدث ..

الآخورقم(٢) : [ناهضاً] : وانا الآخر سأتدخل . [يسير ثم يختفي خلف الكواليس]

الآخورقم(١) : وأنا الآخر. [يسير ثم يختفي خلف الكواليس]

الجوقة : بالغ الناس في الأمر ،
تلك طبيعة البسطاء .
الصالة ، بمن فيها ، تريد المسرحية ،
هل شاهد احدكم خيط دم ؟!
هل شممتم روائح الدماء ؟

المخرج (باعلى صوته) : هذا التناغم عيب ياسادة . خطأ فادح وقع . خطأ فادح . هل تظنون انكم بذلك تقنعون الجمهور ؟ أريد المزيد من الصراخ والندب.

الجوقة : تيودور ارتكب اثماً كبيراً ..
هذا صحيح ، ولكنه لم يفعل ذلك ، عن عمد ،
انه مسكين لايحب سفك الدماء ،
يريد تقديم المسرحية للجمهور .

المخرج [يصفق بيديه] : رائع . هذا رائع فعلاً .

تيودور : ما مهمتي الآن ؟

المخرج : الحفاظ على مواقعك .

الآخورقم(٣) : سوف نرى .

الممثل(٣) : اخرس .

الآخورقم(٣) : [يهم بالهجوم عليه فيقبض عليه الممثل (٤)] : سأهشم رأسك ايها الخنزير .

الممثل(٤) : إهدأ ياعزيزي . ألا ترى انك اصبحت على خشبة المسرح ، وفي المصيدة ؟

الجوقة : أجل . هو في المصيدة .
عصى رغبة المؤلف ،
وهذا جزاء العصيان .

المخرج : رائع . استمروا .. استمروا هكذا . (يرفع كأسه) في صحتكم.
(يرفع المؤلفون كؤوسهم ويقرعونها ثم يشربون وهم يقهقهون . ظلام) .

المشهد (٢)

«بقعة ضوئية محددة تسلط لتكشف الطالب وقـد طمرته الكتب من كل حدب وصوب . يرفع كتاباً سميكاً .. يقلبه »

الطالب : ياربة جميع القردة في هذا العالم . لقد عثرت على الكتاب . ينبغي ان اقرأه الآن .

« فجأة تظهر المرأة بثياب النوم خلفه ».

المرأة : [وقد عصبته بيديها] للفيلسوف كانط ، أليس كذلك ؟

الطالب : [يزيح يديها بهدوء ومحبة] : لكأنني استنجدت بك الآن !

المرأة : [تجلس الى جانبه] : ياحبيبي ! ما هذا الذي تفعله ؟.

الطالب : ابحث في بطون الكتب .

المرأة : قل لي يا روحي ما هو الذي تبحث عنه ؟

الطالب : في الحقيقة كنت ابحث عن مخرج يحـل الازمات الاقتصادية التي يعاني منها البلد . الم يوصني الحاكم بذلك ؟

المرأة : وهل هذا أمر يستعصي حله عليك ياروحي ؟

الطالب [يلقي الكتاب] : أبداً ، مادمت معي فانني استطيع حل لغز الطبيعة والانسان والكون بسهولة .

المرأة : يا سلام . هات قبلة!

الطالب : الآن ؟

المرأة : حل ملتني ؟

الطالب [يقبلها] : خذي ياسيدتي . ولكن ساعديني على حل الاشكال .

(ضجيج هادر)

المرأة : ما هذا ؟

الطالب : لست أدري !

اصوات من الخارج افتح ايها الطالب النجيب . افتح .

الطالب : ماذا في الأمر ؟ [بصوت عال] لحظة ايها السادة !

اصوات : قلنا افتح .

: ان لم تفتح هشمنا الباب .

: هيا حطموا الأبواب .

: افتح ايها الخنث .

: افتح يا ناسياً جميع القيم .

: افتح ...

المرأة : [ضاحكة] افتح يا سمسم .

الطالب : افتح ياسمسم .

صوت الجوقة : افتح يا سمسم . افتح يا سمسم .
لن يحصل مكروه .
[ينهض الطالب ، ويختفي في الظلام ليعود ويتبعه كل من : الآخر (٢) ، الآخر (٤) ، الآخر (١) وهم غاضبون] .

الطالب : الهدوء ايها السادة . الهدوء ارجوكم .

المرأة : [تختفي في الظلام] : انا ذاهبة وسأعود بعد قليل .

الطالب : [يسعل بحدة ، ويلتفت بخفة وبسرعة] : ماذا في الامر ؟

الآخر رقم (٤) : إذن هكذا ! انت تتساءل وكأن شيئاً لم يكن !

الطالب : بالله عليكم دعوني . [يتحول نحو الكتب ، فيمسك الآخر رقم (١) بكتاب ويلقيه ارضاً] .

الآخر رقم (١) : غارق الى اذنيك في الكتب .

الآخر رقم (٢) : أيتها الدودة التعيسة .

الطالب : هوه ! ماذا في الأمر . هيا تكلموا وإلا اتصلت بالشرطة .

الآخر رقم (٤) : الشرطة ؟ لماذا ؟ استدع الحاكم بنفسه . هيا .. هيا بالله عليك .

الطالب : بربكم تكلموا .

الآخر رقم (١) : ياسيدي وقعت الواقعة .

الطالب : هل مات أبي ؟

الآخر رقم (٤) : ليت ذلك حدث فقط !

الطالب : وامي كذلك ؟

الآخر رقم (٢) : كانت المسألة هينة !

الطالب : احترق البيت والدكان ؟

الآخر رقم (١) : لكانت بسيطة أيضاً !

الطالب : إذن ما الذي حدث ؟

الآخر رقم (٤) : خمن .

الطالب : [يحك رأسه] .. اعتقد ، ها . لقد وجدتها . اضرب العمال .

الآخر رقم (٤) : غبي .

الطالب : تظاهرات طلابية في الشوارع .

الآخر رقم (٢) : كلا .

الطالب : انتصر الأمريكان في فيتنام .

الآخر رقم (٤) : [ضاحكاً] : نكتة ظريفة .

الطالب : سقط ديغول في الانتخابات .

الآخر رقم (١) : حلت اللعنة عليك .

الطالب : إذن ، وجدتها الآن . لاتقولوا لا . فشلت السوق الأوربية المشتركة .

الآخر رقم (٤) : حار .

الطالب : [يتهالك على الارض بين الكتب] : ألا تريدون ان تتكلموا ؟

الثلاثة معاً : كلا ، نريد معرفة مدى ارتباطك بأرضك .

الطالب : [بعد تفكير .. لنفسه] : أين ذهبت هذه العينة لتنقذني من هذه الورطة ؟

الآخر رقم (٤) : ها ، تكلم .

الطالب : [يستغرق في التفكير] : ماذا ، ماذا ؟

صوت الجوقة : في الشهر السادس ،

من العام التاسع عشر ،
في اليوم الخامس منه ،
تحرك تيودور .. تحرك تيودور ،
فانتصر ..
في الشهر السادس
من العام التاسع عشر
وفي اليوم الخامس منه .

الطالب : كفى . كفى . هل يعقل ذلك ؟ يا إلهي . [ناهضاً] يا للكارثة الرهيبة ! وأنا .. أنا أين كنت ؟

الثلاثة معاً : دودة كتب نهمة .
دودة كتب سيئة الذوق .
دودة كتب تائهة .

الطالب : [يضرب كفاً بكف] : هكذا إذن . احتلوا خشبة المسرح . إلى أين اهرب الآن ؟ ماذا حل بالحاكم ؟ ماذا حل ؟

الثلاثة معاً : اطمئن ، لم يحدث مكروه كبير .

الطالب : احتل تيودور المسرح ؟

الثلاثة معاً : تيودور احتل جزءاً آخر من الخشبة .

الطالب : وسالت الدماء ؟

الثلاثة معاً : غطت الصحراء كما يفعل البحر ،
تسلقت الروابي ،
طمرت الصخور وغمرت قمم الجبال الخضراء .
احرقوا الزيتون ، وسبوا البرتقال .
الوديان امتلأت بالدم ..
وقرص الشمس غطته اليد السوداء المغمسة بالدم .
« يدخل العامل فجأة » .

العامل : وأنا فقدت أعز الناس .

ذهب أخي غيلة بين النمل المسحوق . هتكوا ستر الأسرة
واحتلوا الأرض .
« يدخل الفلاح »

الفلاح : ماذا بقي لي بعد اليوم ؟ الجوع والموت والدمار . ولدي ..(ينشيج)

صوت الجوقة : تلك أساليب السذج .
لاتصدقوا دموع التماسيح .

الثلاثة معاً : فلتخرس ألسنة السوء .
فلتخرس ألسنة الدس .

الطالب : ياهول ما حدث !

الفلاح : الأفواه الجائعة فاغرة أمامي ، كالجروح ، ليتني استطيع شيئاً .
ليتني استطيع شيئاً .

العامل : [يمسك بذراع الفلاح] : تعال معي .

الآخر رقم (٤) : إلى أين ؟

العامل : إلى حيث نقاتل !

الآخر رقم (٤) : والحاكم !

الطالب : أجل ! والحاكم !

الفلاح : نذهب إليه

الطالب : اذهبوا إليه .

الآخر رقم (٢) : الا تصحبنا ! أنت تجيد الكلام أكثر منا .

الطالب : [مفكراً] : اخرجوا الآن ، اسبقوني سألتحق بكم بعد خمس
دقائق فقط .
(يخرجون)

الطالب : الخطة الاقتصادية، ياسلام، كيف لم اضع في اعتباري تلك المفاجأة؟
لكم كنت غبياً إذن !!
(تدخل المرأة بثياب النوم وتقوم بحركات اغراء)

المرأة : ماذا هناك يا حبيبي ؟

الطالب : لا .. لا شيء ؟

المرأة : تعال يا حبيبي .

الطالب : [وهي تحاول ان تطوقه بذراعيها فيبعدها عنه بعنف] : اليك عني.

المرأة : ماذا جرى لك يا حبيبي ؟

الطالب : قلت اليك عني . احرقي هذه الكتب .

المرأة : لقد اصبحت كالمجانين . هدىء روعك . تعال نشرب .

الطالب : [يقترب منها بهــدوء غاضب] : قلت لك ابتعدي عني . أيتها الأفعى الشريرة جئتني في حال يرثى لها . جئتني بأساليب المراوغة لتضمني تنفيذ العملية .

المرأة : لا ترتكب حماقة ايها المعتوه .

الطالب : [يضع يديه حول عنقها] : يا حبي . تعالي الي .. تعالي .

المرأة : ستندم على ما تفعله .

(يحاول ان يخنقها فتفلت من يديه وتجري مطاردة)

المرأة : سأذهب . سأتركك ولكن دعني .

الطالب : لن تفلتي من الموت ايتهــا ... (يلقي القبض عليها ويخنقها وبينما يسود الظلام يسمع صراخ المرأة) .

صوت الطالب : تلك هي النهاية التي رسمتها بيديك ايتها الخائنة .

(ظلام)

المشهد (٣)

« يضاء القسم الايمن ليظهر الحاكم وهو يجلس على كرسي ، يقف أمامه كل من العامل، الفلاح، الطالب ، الجندي . يبدو ، من خلال الصمت ، ان مشادة حادة قد حدثت . الفــلاح يتأمل العامل ، والجندي يتأمل الطالب ، والطالب مطرق يفكر . »

الحاكم : انتم تدركون ، ولا شك ، أنني لم أتعمد سحب العامل والفلاح من خط المواجهة من أجل ان يحدث ما حدث .

الطالب : انت جبان يا سيدي الحاكم .

الحاكم : لست أدري من أين اتتك هذه الجرأة الوقحة .

الطالب : التخطيط الاقتصادي يا سيدي الحاكم .

الجندي : [بألم] : لقد طلبت منه ان يبقى العامل والفلاح ولكنه تجبر واستكبر .

الحاكم : صه ايها الجندي . الا يكفي ما جررت علينا من ويلات ؟ ألم أضع ، تحت تصرفك ، جميع اسباب النصر ؟

الجندي : [يرفع بندقيته] : هذه البندقية أمام جميع التحديات .

الحاكم : المهم حامل البندقية .

الفلاح : والجوع ؟!

الحاكم : صارلك لسان طويل أنت الآخر .

[يدخل الآخر رقم (٢) ، الآخر رقم (٣) ، الآخر رقم (٤)]

ها ، ماذا تريدون ؟!

الآخر رقم (٤) : لقد شاهدنا كل شيء بأم أعيننا .

الحاكم : بدأ التحيب على ما حدث .

الطالب : سيدي الحاكم : باسم جميع هؤلاء أطلب منك التخلي عن منصبك .

الحاكم : ماذا تقول ؟

الطالب : اقول تنح عن جميع مهامك الآن .

الحاكم : [ناهضاً] : لست الا خادماً يتحمل مسؤولية كبيرة في هذا المجال (وهو يسير بينهم) ان كنت قد ارتكبت إثماً فليس ذلك من صميم تركيبي كما ترون ، أنت (للطالب) ألم تغرق الى أذنيك في وحول الحضارة الجديدة ، والنظريات الاقتصادية الحرة ؟
ألم تنس واجبك في تهيئة كل شيء من أجل معركة المسرح ؟

العامل : يا للمسكين ، من يسمعه يظن انه لم يفعل شيئاً .

الطالب : لقد كنت كما تقول حقاً ، ولكن ...

الآخر رقم (٤) : آن الأوان كي نتحرك ؟ وهـا نحن نتحرك ، زميلنا في المصيدة ، وليس أمامنا سوى العمل .

الحاكم : العمل ، العمل . من هو الذي يتعكم من العمل والحركة ؟ انني سأضع في خدمتكم جميع مسببات النصر .

الطالب : [يمسك الحاكم من يده] : اسمع ايها الحاكم ، ان اساليبك القديمة قد فشلت ، ما عليك الآن إلا أن تنام هادئــاً هانئاً . اننا ، فقط ، نقوم برفع المسؤولية عن كاهلك . هذا كل ما في الامر . والمفروض أن تشكرنا على ذلك .

الآخر رقم(١) : أجل .

العامل : هيا . ليس لدينا وقت .

الحاكم : ايها الجندي . [يقوم بحركة يتخلص فيها من يـد الطالب ويثب خلف الجندي] ، اني آمرك بالقاء القبض على هذا المخرب .

(الجميع مشدوهين)

الجندي [يتحرك نحو الطالب] : بلى . بلى . ينبغي التخلص من جميـع اسباب النكبة التي حلت بنا . (ينفتل ويسدد بندقيته نحو الحاكم) مكانك ايها الحاكم العزيز . ارفع يديك .

الحاكم : لاشك أنك كثير المزاح .

الجندي : مكانك .

[الآخررقم(١) ، والآخررقم(٢) يلقيان القبض على الحاكم]

الطالب [يتصدر المسرح]: خذوه الى السجن فوراً . أنت ايها الجندي الى مكانك حيث تواجه العدو . شكراً لك . لقد قمت بواجبك خير قيام .

الجندي : أريد ، منذ اليوم ، المزيد من التخطيط .

الحاكم : سوف ترون عاقبة هذه الأعمال البربرية . مراهقون . اطفال .

سوف يحتل تيودور البقية الباقية من خشبة المسرح ، ولسوف تزهق ارواحكم خارج هذه الصالة الكبيرة . لسوف تلعنكم جميع الارواح الخيرة الميتة والحية .

الجندي : امامي ايها الحاكم . (يدفعه الى الامام بالبندقية ويخرجان) .

الآخر رقم (٤): الآن يمكننا ان نتفرغ لانهاء وضع تيودور .

الطالب : كما تريدون .

الفلاح : اولاً انت سوف تخطط لنا منذ الآن .

الطالب : [يتوجه مباشرة الى الكرسي ويجلس] بامكان الاخوة ان يذهبوا الى الشوارع ليحموا هذا الاجراء . الفلاح والعامل يذهبا فوراً الى عمليهما لدعم الجندي . ليس لدي اي مانع من الذهاب الى خشبة المسرح . دافعا عن الجندي . احياه . والآن دعوني وحيداً افكر بالاجراءات الواجب اتخاذها بعد ان أطحنا بالرأس العفن .

(يدخل المؤلف الاساسي راكضاً)

المؤلف الأساسي: قفوا ، قفوا . ثمة خطأ .

الطالب : من الذي سمح لهذا الخرف بالدخول ؟

المؤلف الأساسي: ولكنني المؤلف الاساسي ، ينبغي ان انبه ...

الطالب[مقاطعاً]: اخرجوا هذا الخرف من هنا !

المؤلف الاساسي: ولكن

العامل[مقاطعاً]: هيا ايها السيد ، ليس لدينا وقت !

المؤلف الاساسي: خطأ في توزيع الأدوار . انت ايها الطالب

الطالب : [مقاطعاً بحدة] : اخرجوه من هنا !

[يتقدم منه الآخر رقم (٤) ، والآخر رقم (٢) ويلقيان القبض عليه]

الآخر رقم (١) : ضعوه في السجن هو الآخر !

المؤلف الأساسي: ستندمون !

الطالب : اخرجوه من هنا فوراً ! لا يمكن وضع المؤلف الاساسي في السجن بيد أنه خرف على ما يبدو !

المؤلف الاساسي: ولكن ثمة خطأ مميتاً في توزيع الادوار !

[يقتاده كل من الآخر رقم (٤) ، الآخر رقم (٢)]

الآخر رقم (٤): هيا يا سيدي المؤلف .. ! (يخرجون)

الطالب : الى العمل ايها الاخوان ، الى العمل ! [يخرج كل من العامل والفلاح والاخر رقم (١)]

(الطالب ينهض ثم يسير بهدوء . ضياء يكشف الجوقة)

الجوقة : ستحل اللعنة بعد اليوم على هذه الصالة ،

لن يخرج احد حياً !

تنتشر الفوضى كسريان النار في الهشيم ،

وفي وضح النهار سيذر الرماد في العيون ،

ستعمى البصيرة ،

يضحي النهار ليلاً قاتماً كالفحم !

ويضحي الليل ستاراً للجثث النتنة !

اللعنة ! ستحل اللعنة الابدية . (تختفي الجوقة)

الطالب : هذا كلام خطير ! لم أفكر بالخطوة التالية ! ها انذا قد اصبحت حاكماً .. ولكن يا الهي! ماذا افعل !؟ العقول الالكترونية ، والآلات الدقيقة ، والاسلحة المدمرة !؟ ستنسف الصالة على من فيها ! سأزود الجندي بكافة الاسلحة ليحدث ما يحدث الن اتنازل ! لن اسقط وان سقطت فكالابطال ! ينبغي للعامل والفلاح ان يقولا غداً : مات الطالب ميتة الابطال .. ذهب شهيداً من أجل الخشبة ! منع بنعاله تقديم المسرحية هـذا امر عظيم ! أجل ! يجب ان أتصرف على هذا الأساس .

« يجلس الطالب على الارض مفكراً . ضياء يكشف الجوقة مرة أخرى »

الجوقة : انظر ما فعلته يداك !

دماء .. دماء .. دماء !

غطت الدماء أرض وطنك !

شوارع المدينة صارت حمراء !

انهر الدم كالبحار فوارة !

الدم يجلب المزيد من الدماء !

والدمار يجلب الدمار .

من يسكت على فعلة الشيطان ؟!

من يقف في وجه التاريخ ؟! [تختفي الجوقة]

الطالب : التاريخ هو الذي ارادني ان اكون حاكماً !

[يدخل مهرولاً كل من الآخر رقم (٢) ، والآخر رقم (٤)]

الطالب : ماذا جرى ! ؟

الآخر رقم (٤) : الدماء !

الطالب : ماذا تقول ؟

الآخر رقم (٢) : لقد قتل جماعة الثري زميلنا ؟

الطالب : من ؟

الآخر رقم (٤) : سيدي العزيز . ما أن ذهبنا الى الشوارع حتى فوجئنا بانصار الثريين ينهالون ضرباً علينا ، يهاجمون البيوت ، بيوتنا وبيوت العمال والفلاحين ..

الآخر رقم (٢) : اجل !

الطالب : هكذا اذن !

الآخر رقم (٢) : لقد قتلوا زميلنا !

الطالب : لحظة من فضلكما ! دعوني افكر .. (صمت) .. استدعيا الجنود كلهم ، والعامل والفلاح . اهجموا عليهم . اقبضوا على الثريين ! (يدخل العامل ومعه سلاح)

العامل : سيدي الحاكم !

الطالب : العامل بعداليوم ملكك ! هيا ، اقبض على الثري اللعين اقتله ،ماذا!
لو سمع تيودور الآن ما يجري ؟ هيا . . الى العمل .

الآخورقم (٢): ونحن معك .

(يدخل الفلاح وهو يلهث)

الفلاح : لقد نهبوا كل شيء .

الطالب : ماذا ؟

الفلاح : حرقوا المزارع !

الطالب : استول على المزارع.. انها لك ولاسرتك بعد اليوم ! هيا اقبض على.
الثري اللعين ، اقتله : اقبضوا عليها .

الآخورقم(٤) : ونحن معك .

العامل : سنفعل ؟

الطالب : اقتحموا مخازن السلاح.وزعوهاعلى الجميع. اقبضوا على الثريين..
الى العمل وكان الله في عونكم ؟

العامل : هيا يا اخوان ؟

(يخرجون)

الطالب : [ينهض هادئاً . يتقدم من الجمهور] : لقد ارادوها،فلتكن ؟أجل.
م أرادوا ذلك ؟ هما سفكا الدماء البريئة وسيجنيان مـــا زرعته.
ايديها الآثمة .
ما الخطوات التالية ؟ دعوني افكر ! دعوني افكر !

« ستار »

الفصل الرابع :

المشهد (١)

« ضياء عدد يكشف الجوقة »

الجوقة : شاهدتم بأعينكم رغبة سفك الدم .
بعد إن تطايرت مزق العقل ،
لم يبق الا مجال القل الأسود .
نخشى ان تصلكم تتف الموت ببطء ..
نخشى عليكم التسمم !
نحن مجرد شهود عيان ، مثلكم !
تيودور ، افعل شيئاً يا تيودور !
تيودور ، افعل شيئاً !
جاء دورك يا تيودور !

« ضوء يكشف تيودور والممثلين الأربعة في حال إستعداد . الآخر رقم (٣) مكبل اليدين » .

الممثل (١) : اخشى ياتيودور...

تيودور : ما الذي تخشاه ؟! (صمت) تكلم !

الممثل (١) : اخشى ما اخشاه سيطرة العامل والفلاح على الخشبة .

تيودور : يالك من كثير الحيرة قليل التدبير !؟ هل نسيت المؤلفين والمخرج؟!

الممثل (٢) : وهذه الرهينة ؟! [مشيراً الى الآخر رقم (٣)]

تيودور : لقد كبلناه كما ترى !

الممثل (١) : ولكنني خائف.

الممثل (٢) : ليس يعني هذا ، بأية حال ، اننا سنهرب.

تيودور : هذا ما كان ينقصكم ! على كل سأجتمع بالمؤلفين والمخرج . لاشك ان الفرصة الآن موائية لضربة جديدة !

الممثل (٣) : المسرحية ينبغي ان تقدم للجمهور .

تيودور : لقد بدأت فصول المسرحية الأولى فعلاً .

الممثل (١) : الا تحسب حساباً لما يجري في قسم العدو من احداث ؟!

تيودور : الامور الجارية هناك طبيعية . ان من يخسر معركة سيصرخ ويندب ويتصرف ، وهم لاشك غارقون في بحور المشكلات الخاصة بهم . سيظلون يبحثون عن الحلول وسيغرقون في وحول جديدة !

الممثل (٤) : انني اشاطر تيودور رأيه !

تيودور : هذا عين العقل !

الآخر رقم (٣) : وانا سأغرك الآن ؟

الممثل (٤) : لم لا تتخلص من هذا ؟! [مشيراً الى الآخر رقم «٣»]

تيودور : والجمهور ؟!

الممثل (٢) : الجمهور ؟! لم نعير رأي الجمهور اهتماماً كبيراً ؟!

تيودور : هذه ارادة المخرج والمؤلفين ! وسأبحث الامر معهم .

الآخر رقم (٣) : لن اخرج من هنا حياً !

تيودور : اطمئن ! سوف تحفر قبرك بيديك هاتين !

« يضاء القسم الأيسر بأكمله ليظهر الطالب والجندي ، والعامل والفلاح » .

الطالب : لقد انتهى امر الثريين وقضينا على الفتنة !

العامل : ما زال في الجو غيم !

الطالب : سحابات صيف ستنقشع حتماً !

الفلاح : لقد خف الانتاج !

الطالب : هربوا الاموال الى الخارج ! ماذا نفعل غير الذي فعلناه ؟

العامل : نصادر ممتلكاتهم !

الطالب : يا عزيزي ، يا عزيزي ! ثمة انصار لهم موزعون في كل مكان . هل تعتقد أنهم رضخوا للأمر الواقع مرة والى الأبد ؟

العامل : بقوتنا سوف نقضي على كل مؤامرة يدبرونها !

الجندي : لي عينان ، ولي يدان . عين تتربص بالعدو ، والأخرى تتربص بهم . يد على السلاح الموجه الى العدو ويد على السلاح الموجه اليهم .

الطالب : ما زلت افكر في الأمر . ان الاحوال سيئة كما تعلمون . المال ! المال اللعين ! اين ذهب ؟!

العامل : لنلجأ الى الاصدقاء نطلب العون !

الطالب : لقد طلبت المعونات فعلاً !

« يضاء القسم الأيمن ليظهر كل من : المؤلف (١) ، المؤلف (٢) ، المؤلف (٣) ، المخرج ، في حال اجتماع »

الجندي : اطمئن ، سيدي الحاكم ، ما عليك الا ان تزودني بمزيد من السلاح !

الطالب : هذه المشكلة ستستمر الى الأبد !

العامل : اجل الى الأبد .

الفلاح : كيف ؟!

العامل : ان اشترينا بندقية ، زوده الاكسوار بعشر بنادق . ان امتلكنا مائة رصاصة زوده الاكسوار بألف ، سباق رهيب يرهقنا !

الفلاح : والحل ؟!

العامل : الحل ؟ .. الحل ؟!

الطالب : استودعكم الله الآن . سأذهب الى المكتب . سأقرأ ، واقرأ ، وافكر !

العامل : عليك التفكير وعلينا التنفيذ !

الطالب : هذا املي !

الفلاح : ينبغي الا تذهب الدماء هدراً !

الطالب : مستحيل ! كونوا يقظين ! ربما لجأ تيودور الى استعمال خدعة جديدة للسيطرة على الخشبة بأكملها !

العامل : اننا نعرف انها مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا ! اما نحن ، او هو. اما مسرحيتنا التي ستجلب الخير والسعادة ، واما مسرحيته التي ستسبب الخراب والدمار بفعل الاسلحة الفتاكة التدميرية التي بحوزته وبحوزة سيده المخرج واسياده المؤلفين !

المؤلف (١) : بدأوا يدركون كثيراً من جوانب القضية !

الطالب : [وهو يخرج] الى اللقاء !

المؤلف (٢) : [مطرقاً] : إم ! إم ! [يدمدم]

الجوقة : خطر آت من الشرق !

خطر آت من الشرق !

افعل شيئاً يا تيودور !

المخرج : [بصوت عال] كفى ! الا تدركون انكم تسعرون الموقف بندبكم الموجع الرهيب هذا !؟ ثم متى اعطيتكم الايعاز !؟

الجوقة : نحن نرى كثيراً من الأمور يا سيدنا المخرج !

المخرج : كفى !

العامل : [للفلاح] : ترى ماذا يفعل صديقانا !؟

الفلاح : لقد فقدنا زميلين لها حتى الآن ! لا شك انها في حال من اليأس قاتلة ؟

العامل : اذا كانا كذلك فينبغي ان نخفف عنها ، وترفع من معنوياتها !

« من خلف الكواليس تمتد يد لتصفع تيودور على حين غرة »

تيودور : آه ! من هذا !؟

الآخر رقم (٣) : آن الأوان يا تيودور!

المؤلف (١) : سأعلن ان .....

المخرج : [مقاطعاً] : قبل ان تتحدث عن الاعلان اعلنه ! هيا !

المؤلف (١) : [يتقدم من الجمهور]: سيداتي ، آنساتي ، سادتي ، لقد خلقت تيودور ومددته - دوماً - بأسباب البقاء . ولن اسمح لأية قوة في هـذه الصالة أن تمنع تحقيق أهدافنا المشتركة . ان لي ماضياً مشرقاً في مساندة الذين اصنعهم ! لن اسمح لأية يد ان تمتد بالسوء لتيـودور ! [يعود]

تيودور : [للممثلين] : هل سمعتم !

الممثل (١) : لقد اطمأن قلبي قليلاً !

الآخر رقم(٣) : (يدير يديه المكبلتين ويلطمه) : خذ ايها اللعين إذن !

تيودور : (يهرع اليه ويصفعه) : اسمع ايها الوغد ! لم اقتلك حتى الآن ايماناً مني بأنني استطيع الوصول الى تفاهم معك ! ولكنني قد الجأ الى اساليب اخرى لاقناعك بأنني قوي واستطيع كل شيء ! ايها الممثلان : قيداه الى خشبة كالصليب . عذباه . [يتحرك الممثل (١) والممثل (٢) ويجران الآخر رقم (٣)]

الممثل (٣) : وانا هنا ساهر !

الممثل (٤) : مع تيودور ! نحن هنا !

تيودور : افتحا الاعين جيداً ، قد يأتينا غدر من جهة ما !

المؤلف(٢) : رأيي ان نعدل...

المخرج : ماذا تقول ؟!

المؤلف(٢) : هذا بيننا سر ! رأيي ان نغير من خطتنا . ان التأثير على الجمهور يتطلب ان اعلن انني تخليت عن مشروع مسرحية « التصفية » !

المؤلف(٣) : هذا جبن ! هذه خيانة !

المؤلف(١) : اصغ ! اصغ جيداً ! ماذا اسمع ؟!

المخرج : (مصغياً) انني لا اسمع شيئاً !

المؤلف(١) : [ينهض مذهولاً] : ولكنني اسمع اصوات طبول !

المؤلف(٣) : [ناهضاً] : وانا لا اسمع شيئاً !

« اصوات اطلاق رصاص »

المؤلف(١) : والآن !

المخرج : اصوات رصاص !

تيودور : اتعرفون اين اطلاق الرصاص ؟!

المؤلف(١) : اين ؟

تيودور : في البيت ! عندي في البيت !

الممثل (١) : هذا ما كنت اخشاه !

تيودور : (يحملق في الجنـــدي ومجموعته) : ولكنهم صامتون ! من يطلق الرصاص اذن !

المخرج : اجل . من يطلق الرصاص ؟!

الجوقة : من يطلق الرصاص !
من اجل ان تتم المسرحية
اكتموا صوت الرصاص !
اكتموا صوت الرصاص!

الآخر رقم (٣) [وهو مشبوح على الخشبة – مصلوباً] : تصلبونني ولا تتوقعون صوت الرصاص ، اسمعوا اذن !
(اصوات رصاص – ظلام)

المشهد (٢)

« بقعة ضوئية حمراء. الآخر رقم (٢) ، الآخر رقم (٤) يحملان السلاح وهما في حال استعداد »

الآخر رقم (٢): هل تم حفظ كل شيء ؟!

الآخر رقم (٤): ينبغي ان يكون كذلك !

الآخر رقم (٢): ان نسف مراكز القيادة امر هام جداً .

الآخر رقم (٤): ادرك ذلك ولكن الوقت لم يحن بعد .

الآخر رقم (٢): مبيء بجموعاتك جيداً !

الآخر رقم (٤): ماذا كان رد فعل العدو !؟

« ضوء يكشف الجوقة »

الجوقة : اصغ يا جمهور الصالة !

نحن اصغينا فسمعنا الانين

انين اطفال يقتلون

انين ارامل

انين صبايا اصابتهن شظايا القنابل !

في الاسواق يلقون القنابل !

في الساحات يلقون القنابل !

في البيوت يزرعون الموت !

في المسابح ينثرون الدمار !

واحد [من الجوقة] : مررت بالشاطىء صباح اليوم ! [يضحك] كان مقفراً !

آخر [من الجوقة] : لماذا كان مقفراً !

واحد [من الجوقة] : بالامس فقط تفجرت قنابل ! هرب الآمنون من الشاطىء ! من جحيم الشمس كانوا هاربين الى البحر ... فتلقفتهم قنابل الموت فعادوا الى البيوت !

ثالث [من الجوقة] : من مدينة كبرى عدت قبل لحظات ، رأيت العجب العجاب !

الجوقة : ها ! قل ماذا رأيت

اقصص لنا !

هيا !

ثالث [من الجوقة] : كأنه يوم الحساب قبل ان ينفخ في الصور . لم أر حياً غير جرذ بري !

رابع [من الجوقة] : ماذا كان يفعل !؟

خامس [من الجوقة] : كان يبحث عن قطعة جبن .

ثالث [من الجوقة] : لم يجد ما يأكله !

الجوقـــة : اين كان الناس إذن ؟!

ثالث [من الجوقة] : تحت الأرض ؟

الجوقـــة : أموات ؟!

تحت الأرض ؟!

ثالث [من الجوقة] : احياء ، ولكن تحت الأرض !

الجوقـــة : في الملاجيء !

خامس [من الجوقة] : حين كنت ماراً بتلة صغيرة ، عليها حرش صغير ، داهمني صوت رصاص ! الشاحنة ملأى بالاطفال ! تفجر اللغم ؛ مات الكثيرون منهم . اجهز المجرم على الباقي !

الجوقة : بالهول ! بالدمار !

اسمعوا ياناس !

اسمعوا ياناس ! « تختفي الجوقة »

الآخر رقم (٤): هذا كذب !

الآخر رقم (٢): هذا خداع !

الآخر رقم (٤): كنا في الصالة ! شاهدنا كل شيء ! لم يحدث من هذا شيء ! يريدون تفجير الصالة بمسرحية « التصفية » ، والتصفية لن تحدث ونحن احياء ! اجل ! من اجل سلامتكم انتم ، من اجل مستقبلكم انتم ! لاتصفية !

الآخر رقم (٢): اجل ! لاتصفية !

الآخر رقم (٤): هيا الى العمل !

الآخر رقم (٢): الى العمل

« ظلام »

المشهد « ٣ »

« ضوء شديد على القسم الأيمن ، يظهر المخرج ، المؤلف (١) ، المؤلف (٢) ، والمؤلف (٣) وتيودور في جلسة صاخبة »

تيودور : هذا لن يتم !

المخرج : بل سيتم ان بقينا على هذا الحال .

المؤلف (١) : قلت ان المسرحية ستقدم هذا المساء ، يعني ستقدم هذا المساء !

المؤلف (٣) : والارهاب ؟

المؤلف (١) : نقمعه !

تيودور : كيف !؟

المؤلف (١) : اكسسوار!

صوت : نعم!

المؤلف (١) : جهز تيودور بالاسلحة الجديدة !

المخرج : هذا غير مجد قطعاً!

المؤلف (١) : لست ادري لماذا !؟

المخرج : لانستطيع استعمال هذه الاسلحة على الخشبة وامام الجمهور !

المؤلف (٢) : ماالعمل إذن !

المخرج : نبحث عن خطة جديدة

المؤلف (١) : خطة جديدة ، خطة جديدة ! العقول الالكترونية تقول : بالامكان اكتشاف جميع مصادر التخريب ! اي يمكن اكتشاف الفاعلين ومن ثم تدميرهم !

تيودور : ان الامر يزداد خطورة !

المخرج : [للمؤلف١]: ماذا جرى لمجموعاتكم!؟

المؤلف (١) : مجموعاتنا !؟ مجموعة من الاغبياء ! بالامس اجتمعت الى الامبراطور اللعين ؟ اتعرفون ماذا قال ؟ قال :

صوت الامبراطور : م لايملكون الا ان يمدوا الاعمال بالعون !

المخرج : ولكن لماذا ؟!

المؤلف (٢) : اجل لماذا ؟!

المؤلف (١) : لئلا يكون مصيرم كمصير الحكم الأول!

المخرج : هذا شيء فظيع حقاً !

المؤلف (١) : [بعصبية] : ان من يمد يده بالسوء نحو تيودور ستقطع ! اجل. حتى لو اشعلت الصالة باكلها وقضيت على من فيها ! علي وعلى اعدائي يارب !

تيودور : احبك !

المخرج : هذا ليس حلاً للمشاكل !

المؤلف (١) : قبل استعمال القوة سألجأ الى وسيلة نهائية ! خطة بارعة ستقضي على جميع اعداء المسرحية .

« ضوء يكشف الجوقة »

الجوقة : اترون الى اي مدى اوصلهم استهتارم ؟!

يهدد المؤلف الأول بالدمار !

لماذا ؟!

بسبب مراهقين صغار !

اطفال يعبثون بالنار !

اطفال يعبثون بالنار !

« ظلام »

المشهد (٤)

« يسلط ضوء على القسم الأيسر . الجندي ، العامل ، الفلاح ، الآخر رقم (٢) ، الآخر رقم (٤) في حال استعداد . تيودور والممثلون الأربعة في حال استعداد »

الجندي : للمرة الأخيرة اقول : ياتيودور اخرج من هنا !

تيودور [مقهقهاً] : ألم تتلقن الدروس ؟!

الآخر رقم (٢): ألم تتلقن الدروس انت الآخر ؟!

تيودور : والمصير ؟!

الآخر رقم (٤): الدمار ! انسحب افضل لك !

تيودور : ستقدم المسرحية للجمهور هذه الليلة !

الفلاح : وهذه المسرحية معناها فناؤنا !

تيودور : اذن ادركتم اخيراً سر القضية !

العامل : وكيف لاندرك ؟! ولكن ، ليكن مفهوماً لديك ، ان نهايتك اصبحت قريبة !

« اصوات رصاص »

تيودور : [مقهقهاً]: الرصاص !

العامل : من اين ؟

تيودور : انه في بيوتكم ! في ارضكم ، موجه الى صدوركم ! احموا ظهوركم قبل ان تقاتلوا تيودور !

الجندي [لنفسه] : ان تركت مكاني كانت النهاية .

الآخر رقم (٢): سأذهب لأرى ماهي الامر .

الآخر رقم (٤): وانا الآخر ! [يخرجان]

العامل : ترى اية قوة شريرة اضرمت نار الفتنة من جديد ؟!

الفلاح : اخشى ما اخشاه ان ينهار حاكمنا !

العامل : اطمئن . من يستطيع فعل شيء في البلد ؟!

تيودور : (ضاحكاً) : خمسوا وسدسوا !

« ضوء يكشف الجوقة »

الجوقة : لا جدوى ، لا جدوى !

مسرحية التصفية قدر !

والقدر لا يصمد امامه شيء !

ارادة السذج مغلوبة !

ارادة القدر هي المنتصرة !

لا جدوى .. لا جدوى ! [تغيب الجوقة وهي تقهقه . ظلام]

المشهد (٥)

يضاء المسرح عن الحاكم الجديد «الطالب» وقد ارتدى ثياباً جديدة يجلس خلف طاولة فخمة ، امامه مجموعة من الاوراق والاقلام وهو سام

الطالب : [مفكراً لحظة ثم يحملق في سماء الغرفة]: لن اخضع لهؤلاء الخونة . يلبغي ان تمنع تقديم المسرحية بأي ثمن ! اجل ! انا على استعداد ، الآن ، لأن اموت من اجل ذلك ! [ينهض ويشعل لفافة] خونة ! يمدون ايديهم من خلف ظهورنا للاجنبي !
[كطيف تمر المرأة من أمامه] هاه ! ما هذا ؟ ألم أقتلك أيتها اللعينة ؟

المرأة : [تتوقف وهي بثياب بيضاء] : سيكون مصيرك كمصير سلفك !

الطالب : [يقترب منها] : اذهبي ايتها الشريرة !

المرأة : لا تصرخ في وجه الذين ماتوا فيك ! اطمئن ، هؤلاء الشبان لن لن يدعوك على هذه الكرسي تستقر !؟ [تضحك] يا سلام ! لكم تغيرت ! لقد بدأت ترتدي الثياب الفخمة الجميلة ! كم احبك !

الطالب : اخرجي من هنا والا اجهزت عليك ثانية !

المرأة : هل تشك اذن في انني ما زلت حية !

الطالب : بلى .. بلى ! [يقترب منها فتختفي] لقد خنقتها بيدي هاتين ! أجل قضيت عليها في ساعة صحو رائدة ! [يصمت ، ثم يفكر . يهز رأسه] : ما الذي جاء بها الآن ! ما الذي اتى بها ؟!
« ضوء يكشف عن الجوقة »

الجوقة : ساعد كان هزيلاً ،
ساعد يشكو المتانة .
جئت بالفكر اليه ،
فاشتد الساعد .

بعد أيام قليلة ،

بعد ساعات عديدة ،

سيرميك الساعد !

فلنحصد اذن ، مازرعته يداك : (تختفي الجوقة)

الطالب : مستحيل ! مستحيل ! [طرقات على الباب، يصحو] افتح وادخل! [يدخل الآخر رقم (٢) ، الاخر رقم (٤)] ماذا في الأمر ؟!

الآخر رقم (٤) : تحية ياسيدي الحاكم ! [يصافحانه]

الطالب : اهلاً ، اهلاً ! هل ثمة جديد ؟!

الآخر رقم (٢) : في الحقيقة دام الإخوة قلق عجيب .

الطالب : الملاعين يخلقون المصائب .

الآخر رقم (٢) : لو كنا قضينا عليهم قضاء نهائياً لما تحركوا !

الطالب : في قسمنا تقضي عليهم ! امرت قبل قليل باعدامهم في حال إلقاء القبض عليهم ،ولكن ماذا نستطيع ان نفعل في الأقسام الأخرى !

الآخر رقم (٤) : تمديد العون للقوى التي تقف ضد المسرحية !

الطالب : الا تدركون كم من الأموال والأسلحة سيتطلب مثل هذا الأمر ؟! ثم ينبغي ان لاننسى أن المؤلفين والمخرج سيتدخلون ! انهم يبحثون عن مبرر التدخل يرضى به الجمهور الموجود في الصالة الآن.

الآخر رقم (٢) : الخونة ! ماذا يريدون ؟!

الطالب : ثمة امر يجب ان تدركه جميعاً : من مصلحة هؤلاء ان تقدم المسرحية .

الآخر رقم (٤): كيف ؟!

الطالب : ياعزيزي سوف يثرون ، سوف تأتيهم النقود من كل حدب وصوب ! ان المخرج والمؤلفين على استعداد لدفع الآلاف المؤلفة لهم . ولكن في حال انتصارنا نحن وفشل مسرحية « التصفية » ما الذي سيجنونه ؟!

الآخر رقم (٢): لاشيء!

الطالب : أبداً! بل ثمة ماسوف يجنونه!

الآخر رقم (٢): ماهو ؟!

الطالب : العار والهلاك! ستهب القوى المضـادة للتصفية وربما صفتهم ايضاً!

الآخر رقم (٤): الآن بدأت ادرك السر!

الطالب : تلك طبيعة تكوينهم!

الآخر رقم (٢): والحل ؟!

الطالب : الاستمرار في اعمالنا حتى النهاية!

الآخر رقم (٤): ولكنهم سيعرقلون اعمالنا هذه بأية وسيلة!

الطالب : لن يستطيعوا شيئاً اكثر من حياكة المؤامرات ضدنا.

الآخر رقم (٢): وواجبنا ؟!

الطالب : الاستعداد للتضحية! هيا اذن!

الآخر رقم (٤): نريد عتاداً جديداً!

الطالب : [يتجه الى الطاولة ويمسك بالقلم ويكتب على ورقة] : خذا هذه الورقة واستلما من المخازن ماتطلبان!

الآخر رقم (٤): (يتجه اليه ويتناول الورقة) شكراً.

الطالب : الى العمل.

الآخر رقم (٢): الى اللقاء!

الطالب : مع السلامة! [يخرجان] اجل! ان سواعدهم تشتد والضغوط من من كل جانب تشتد! اجل! اجل! اجل! (ظلام).

المشهد (٦)

« يضاء المسرح بكامله. في القســـم الايمن : المخرج ، المؤلف (١) ، المؤلف (٢) ، المؤلف (٣) ، ثري (١) ، ثري (٢) في حـــال اجتماع . في القسم العلوي : الجوقة .في القسم الايسر : تيودور في حال استعداد مع جنوده . (الممثلون الأربعة) الآخر رقم (٣) مصلوب وقد تمزقت ثيابه ، وظهرت على جسده آثار تعذيب ،وهو في حال يظهر انه شبه مغمي عليه . الجندي – وقد رفع العصبة عن ذراعه – ، العامل ، الفلاح ، في حال استعداد » .

الجوقة : عود الثقاب يحترق من جديد ،
برميل البارود من خشب عتيق .
قد تنفجر، في اية لحظة ، هذه الصالة ،
من اجل ان يقف المتوحشون ضد تقديم المسرحية .
انتم – ايها الناس – تريدون رواية التصفية
وهؤلاء [يشيرون الى العامل والجندي والفلاح] لايريدون !
ومن اجل هذا الرفض يتسببون بدمار الصالة ومن فيها !
ياللهول ! ياللهول !

ثري (١) : [غاضباً] الامور تزداد سوءاً يوماً بعد يوم !

المخرج : لا احد يسمع كلماتي او توجيهاتي .

المؤلف (١) : ماذا تطلب ؟!

المخرج : إحكام الحركة ، دقة التصويب ، الفكرة الذكية ! كل شيء يسير من سيء الى اسوأ !

ثري (٢) : لاطريقة الا ان تتدخل !

المخرج : وانت ماذا تملك حتى تتدخل ؟

ثري (١) : يعني ان تتدخلوا انتم .

المخرج : هذا شيء لايمكن ان يحدث .

المؤلف (١) : لم لا ؟!

المخرج : جميع من في الصالة سيقف ضدنا ! ربما خرجوا منها احتجاجاً ، فلمن نقدم المسرحية بعد ذلك ؟

المؤلف (٢) : أجل ! انه على صواب !

تيودور : انني في خطر !

الجندي : سوف ترى بعد لحظات ما سيحل بك !

الآخر رقم (٣) : الويل لك يا تيودور !

الممثل (١) : مازال المكبل يتكلم !

تيودور : انها حشرجات النهاية يا عزيزي .

« يتسلل من خلف مجموعة تيودور كل من الآخر رقم (٢) ، الاخر رقم (٤) وهما مسلحان بالبنادق الرشاشة ، ويحملان مدفعاً رشاشاً ثالثاً ، ويختفيان خلف الآخر رقم (٣) . »

الجوقة : الخطر الآتي من الشرق يحرك .

النيران ! النيران !

بدأ حبل البارود يشتعل !

ثوي (١) : جهزوني بالعتاد والاسلحة وسأغزو الطالب ومن معه .

ثوي (٢) : كلام فارغ !

المخرج : بل هذه خطة مقبولة .

المؤلف (٣) : أجل ! أنا سأفكر في تدبير خطة معها .

الفلاح : ايها الجندي ، هل تلقيت الأوامر ؟

الجندي : أجل !

العامل : ومتى هي ساعة الصفر ! ؟

الجندي : عندما نسمع صرخة ثأر الآخر الثالث ، وهو يطبق على الاعناق من الداخل .

عندما تشخص عينا تيودور دهشة .. عندما ترتبك خطوات ممثليه الاربعة .

عندما تتعطل ادمغة الرجال الذين يصنعون البارود المدمر ، في لحظات مريعة . عندما نسمع تهليل من في الصالة .

الفلاح : يا إلهي ! انني اتشوق الى حقلي .

العامل : كادت الآلة تتوقف صماء عاجزة .

الجندي : لحظات وتعودان ؛ أنت الى حقلك ، وأنت الى معملك . ولسوف ينتهي كل شيء ويخرج الناس من الصالة سالمين .

العامل : ترى ماذا يدبر الاثرياء ! ؟

الجندي : م يحيكون المؤامرات .

الفلاح : اذن فلنعجل .

« فجأة يتحرك الآخر (٣) ، يتضح لنا ان يديه أصبحتا حرتين، ثم يحمل المدفع الرشاش ! »

الآخر رقم(٣) : ها ! هذا يومك يا تيودور !

« اطـلاق رصاص عنيف . صرخات متقطعة متباينة . موسيقى صاخبة . ظلام » .

المشهد (٧)

« اضاءة محددة تكشف الطالب وقد ارتدى ملابس عسكرية وحمل سلاحه . ضوء يكشف الجوقة . »

الجوقة : في زمن القهر المكتظ بالتساؤلات ،
يحفر الرجال قبورهم بأظافرهم ،
من أجل ان يسمنوا ، ويكبروا ،
يشهدون جبال اللحم الآدمي المحترق ،
ويغرقون في بحور دماء العالم . [تختفي الجوقة]

الطالب : هذا طيش ! ما المصير الآن ؟ [مفكراً في لحظات صمت ، ثم يتجه الى الجمهور]
ما العمل الآن ؟ يجب ان اهدأ الانفعالات الطائشة .
[المرأة ، شبه خيال ، تسير من امامه ضاحكة بدلال ثم تتوقف]

الطالب : هاه ! هل انا في حلم ! ؟

المرأة : (مقهقهة) : كلا ! في علم .. لا مفر .. لامفر !

الطالب : قلت لك دعيني وحيداً . [يسدد نحوها سلاحه]

المرأة : وما جدوى الرصاص في الميت ؟

الطالب : لماذا ظهرت ثانية ؟

المرأة : لأذكرك بأيامنا الجميلة التي اضعتها في لحظات انفعال رهيبة .

الطالب : [يهيء سلاحه] سأفرغ الرصاصات في رأسك !

المرأة : ربما اضطررت الى افراغها في دماغك ؟

الطالب : هيا اغربي عن وجهي !

المرأة : ستلتحق بي بعد قليل ! [وهي تخرج] . . بعد قليل ! لقد جن شوقي اليك . كم احبك !

الطالب : اذهبي الى الجحيم ! [مطرقاً لحظة] . . ينبغي ان افعل شيئاً . (يخرج . ظلام)

المشهد (٨)

« اضاءة شاملة . في القسم الايسر الآخر رقم (٣) يطبق على تيودور وهو يحاول ان يجهز عليه . الفلاح يطبق بيديه على عنق الممثل (١). العامل يكبل الممثل (٢)، الآخر رقم (٤) يقف امام الممثل (٣)، والممثل (٣) يرفع يديه ، الآخر رقم (٢) يقف امام الممثل (٤)، والممثل (٤) يرفع يديه وهو في حال من الفزع . في القسم الايمن المخرج ، المؤلف (١)، والمؤلف (٢) ، والمؤلف (٣) ، ثري (١) ثري (٢) في حال اجتماع صامت . الجوقة مشدوهة . اصوات رصاص في كل مكان . صخب وضجيج . يدخل الجندي ومعه الطالب في ثياب عسكرية وهو يحمل سلاحه . »

الطالب : كفى !

الفلاح : ماذا تقول !؟

الطالب : يكفي ان نسترجع الأجزاء التي احتلها تيودور ، وإلا نسفت الصالة .

العامل : مادام تيودور موجوداً هنا ، مادام خطر إستئناف محاولات تقديم المسرحية قائماً !

الجوقة : العالم على فوهة بركان !
ستنفجر الصالة .
افعل شيئاً ايها المخرج !
افعل شيئاً ياتيودور !

تيودور : [شبه مجنون] : ماذا ... إستطيع الآن !

الآخر رقم (٣) : اسمع ايها الحاكم ، ينبغي ان اجهز على تيودور !

الطالب : آمركم بالكف عن هذه الاعمال ! ان المؤلفين والمخرجين سيتخذون اجراءات من شأنها نسف الصالة على من فيها !

الآخر رقم (٢) : [يترك الممثل ٤] : انا ذاهب !

الآخر رقم (٤) : [يترك الممثل ٣] : وانا ذاهب معك ! (يخرجان)

الطالب : يكفي اننا إسترجعنا ارضنا !

العامل : يكفي ان يبقى شبر مع تيودور حتى يبقى الخطر يتهددنا جميعاً !

الطالب : أرجوكم كفى !

المخرج : هل نتدخل ؟!

المؤلف (١) : لننتظر النتيجة ! مادام تيودور حياً فثمة أمل !

الجوقة : العالم في فوهة بركان !
افعلوا شيئاً ياناس !
اوقفوا همجية الجهلة !

الطالب : أرجوكم ياخوان ! ارجوكم ، لانريد ان نفقد كل شيء دفعة واحدة !

الآخر رقم (٣) : اذهب الى الجحيم ايها المتخاذل !

الطالب : [بغضب] ايها الجندي اقبض على هذا الرجل !

الجندي : [متردداً] : ماذا ياسيدي ؟

الطالب : من اجل سلامة الصالة والخشبة اقبض على هذا الرجل !

العامل : ايها الطالب تذكر شيئاً واحداً .

« اصوات انفجارات . القسم الايمن في فزع »

المخرج : ماهذا ؟

المؤلف (٢) : أجل . اين هذه الانفجارات؟

المؤلف (١) : اخشى... « مرتبكا »

الطالب : [مصغياً] اتسمعون ؟ بدأ العالم ينفجر . اقبض على هذا الرجل ايها الجندي !

الجندي : [يسدد بندقيته صوب الاخر رقم (٣)] على هذا الرجل ياسيدي؟

الطالب : أجل !

الجندي : [يسير نحو الآخر رقم (٣) ثم يلتفت ويسدد بندقيتـــه صوب الطالب] : سوف — « انفجارات هائلة... صرخات . . . »

(ظلام)

صوت الجوقة : ياللهول ! ياللهول !

افعل شيئاً يامخرج ؟

افعلوا شيئاً ايها الناس

« يدخل المؤلف الاسامي ويسير بهدوء ، يحمل ورقة ويقرأ »

المؤلف الأسامي: سيداتي ، آنساتي ، سادتي : ذات يوم ، والعالم في فوهة بركان ، نقلت وكالات الانباء خبراً هز العالم كله . ورغم ان امثال هذا الخـــبر نسمعها كل يوم ، كل ساعة في ايامنا هذه ، ولا تثير فينا شيئاً غير عادي ، الا ان هذا الخبر احدث ضجيجاً هائلاً وصل الى مسامع كل بيت من بيوتات الدنيا . كانت ردود الافعال تتراوح مابين الفرحة الكاملة ، والاستغراب ، ومابين الذهول ، وهزة الرأس . مابين هزة الكتفين وقلب الشفاه . هذا الخبر يقول :

« بينما كان المؤلفون المسرحيون العالميون ، المؤلف رقم (١) ، المؤلف رقم (٢) ، المؤلف رقم (٣) ، والمخرج الهائل ، وبعض الممثلين المشهورين، يتدارسون الفصل الاول من مسرحية «التصفية» لوضع اللمسات النهائية لاخراجه الى حيز التنفيذ، انفجرت اطنان هائلة من الديناميت والقيت مئات الصواريخ على المكان. مازالت الخسائر مجهولة ، والبحث جار عنهم بين الانقاض . وتقول وكالات الانباء ان الحادث من تدبير المخربين » .

سيداتي سادتي :

استبدلت بعض محطات الاذاعة بكلمة « المخربين » كلمتي «الفدائيين» و « الثوار ». وبعد مرور شهر على هــذه الحادثة ، والعالم يتحدث عنها في كل لحظة ، نشر صحفي هاو مايلي في احدى الصحف المعروفة: « كنت افتش في الانقاض فوجدت مجلداً كبيراً لم تكتب فيه غير هذه الصفحات من المسرحية والتي اقدمهــا اليوم للقراء . ظلت الصفحات الاخرى فارغة الا من لطخات سوداء هنا ، وهنــاك نتيجة الحريق الهائل الذي احدثه الانفجار. ولكن الشكر للآلات الالكترونية اذ لم يتلف ماسجلته بسبب طاقتها المضادة للحرائق ». اعزائي . هذا الصحفي الهاوي هو ... عفواً ... لقــد انتهت المسرحية ، ولايد لي في صياغتها ، رغم ان اسمي هو المؤلف الاساسي انني رجل أمين .. رويتها لكم كما وجدتها . اسعدتم مساء »

ستار النهاية

الخروج من البحر الميت

– مقاطع جديدة –

محمد عز الدين المناصرة
– القاهرة –

١ – أضاعوني :

« مضت سنتان » ... قالت جدّتي وبكَتْ
وأعمامي
يهزون المنابر ، آه ما ارتجّوا ولا ارتاعوا
مضت سنتان .. قال الشاعر المنفيّ حين بكى :
« أضاعوني
وأيّ فتى أضاعوا »

مضت سنتان .. أرضُ الرومِ واسعةٌ ..
وجدّي دائماً عائرٌ
وسوق عكاظ فيها الشاعر الصعلوكْ
وفيها الشاعر المملوك
وفيها الشاعر الشاعرْ
وأعمامي
يقولون القصائد من عيون الشعر
وأمي مهرةٌ شهباء تصهل قبل خيط الفجر
تفكّ هنا ضفائرها
وتلبس ثوبها الأسودْ
وأمي تقرأ الأشعار في الأسواق
وفي الغابات عند تجمّع الأنهر
وأمي .. ولدتْ طفلاً له وجهان ، يشبهني
فأقسم والدي في القبر ، أنكرني
وأنكر كل أعمامي
وراحوا ينشدون الشعرْ
وراحوا يشترون القول بالميزان
وأمي ولدت طفلاً له وجهانْ
فما ارتجّوا ولا ارتاعوا
وكان الطفل ينشدهم قصيدته :
أضاعوني
وأيّ فتى أضاعوا

٢ ـــ أنا ـ نحن ـ الكهف ـ الحلول :

يعشون في سواحل المنى
ثلاثة رابعهم أنا
وعبدهم أنا
ومن بنى
أهرامهم تحت سياط الشمس في الظهيرة .
أنا الذي أنتظر الجيوش
أعيش في زمانكم ولا أعيش
أنا الذي أموت في الصحراء كل يومْ
أنا الذي إذا تكسّرت سيوفهم
يُلقى عليّ اللومْ
من أول الزمان حتى اللحظة المريرة
حين تطل شمسنا للمرة الأولى
من فتحة الكهف العتيق
ثلاثة ألقتهم الطريق
رابعهم أنا
أولهم يعلل الرفاق بالمنى
آخرهم يحلم بالزواج من وصيفة الأميرهْ .
ونحن من نموت في البحار والسماء والجبلْ
ومن نجوع تحت كل كوكب على أمل

حين فقدنا العزم .. صار نجمنا زُحَلْ
وبكت النساء .. مزّقت حبيبتي الضفيرهْ .

٣ ـــ مدائن النعاس :

وقطعتُ وديان الجزيرة ...
سرتُ في « الأرض الموات »
وشربت من نهر الفرات
وبنيت في الأوهام للشجعان قصر
عرّجتُ صوب مدائن النوم الكسيحة أستغيثْ
وذكرتُ أحبابي بمصر .

* * *

الكل أقسم أن ينام
ياهذه المدن السفيهة .. إنّي الولد السفيه
لو كنتُ أعرف أن نارك دون زيت
لو كنت أعرف أن مجدك من زجاجٍ ... ماأتيتْ
أنتِ التي خليتني
قمراً طريداً دون بيتْ
ياهذه المدن السفيهة . عندك الخبر اليقينْ
أن الذين أتيتهم
صبغوا الوجوه
وتلفعوا بالصمت في هذا البَلَدْ
وأنا أريد بني أسَدْ

قتلوا أبي واستاسدوا ...

ماعاد ينهرهم سوى الخيل الضوامرِ ...

والسيوف بلا عدد

وأنا أريد بني أسَدْ .

ياهذه المدن السفيهة .. يامقابر يا فجاج

أسقيتني ملحاً أجاج

والزّهو قد موّهته وولغت فيه

بيني وبينك .. خيطُ ودٍ .. فاقطعيهْ .

طفتُ المدائن بعضهم

قذف القصائد من عيون الشعر يرثي والدي

والآخرون تنكروا : « إذهبْ وربّك قاتلا »

وكأنهم مامرّغوا تلك الذقون على

فتات موائدي

« والله لايذهب ملكي باطلا »

والله لايذهب ملكي باطلا

وبكى حصاني ... فارتميتُ من التعَبْ

وسمعتُ والينا يقول وعينه

فيها القذى

« لايسلم الشرف الرفيع من الأذى »

حتى تقال على مسامعه الخُطَبْ

حتى تقال على مسامعه الخُطَبْ

سلب العرب من تاريخهم

دراسة للجزء الثالث من تاريخ الحضارات العام

محيي الدين صبحي

لايكشف الحقيقة العربية سوى عربي ، ولا يحميها سوى عربي . ومن البدهي بالتالي ألا يستطيع جلاء حقيقة الحضارة العربية وتحليلها الى عناصرها ، سوى عربي خبير بأسرار اللغة ، متبحر بأمور الشريعة . فقد كان الدين الاسلامي هو المرشد الأيديولوجي للمفكرين السياسيين في الحضارة العربية . فاذا أراد مؤرخ أن يفهم التيارات السياسية في الحضارة العربية ، فعليه أن يكون عميق الاطلاع على مفهومات الإمامة والاجماع والشورى وأهل الحل والعقد ، وصلات

المسلمين بغيرهم ، وموارد الدولة من الزكاة والفيء والجزية والصدقات والغنائم ، ومكانة القضاء والجهاد والدعوة الى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودورها في المجتمع العربي الاسلامي »[1] .

ان هذا الرأي ، لاينفي إمكانية مساهمة المؤرخين الأجانب في الكشف عن بعض جوانب تلك الحضارة المجيدة ، لكنه يترك المبادهة الأولى والتقرير الأخير على عاتق الفكر العربي المفروض بأنه وريث هذه الحضارة والأكثر قدرة على فهمها وتجديدها .

لم تتأكد لدي سلامة هذا الرأي وموضوعيته في حين من الأحيان قدر ماتحققت خلال قراءتي لموسوعة « تاريخ الحضارات العام » بأجزائه الستة المنشورة بالعربية ، ولا سيا الجزء الثالث منها ، لأنه وقف على القرون الوسطى والحضارة العربية .

شعرت في الحقيقة بالغبن منذ قرأت عنوان الجزء الثالث ، وهو « القرون الوسطى » . ذلك أن الجزء الأول عالج « الشرق واليونان القديمة » معالجة ضافية منظمة ، تفرد لكل حضارة بحثاً خاصاً ، وان كان أهمل وحدة الأصل العربي حين بحث الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والآرامية ، التي تشترك مع الحضارة العربية في أصل واحد ، ولا تختلف فيما بينها إلا بأن مايسمى « الهجرات السامية » كلها خرجت من اليمن وجنوب الجزيرة العربية ، أما الحضارة العربية الاسلامية فهي الوحيدة التي كان مصدرها شمال الجزيرة في مكة ويثرب .

---

(١) محيي الدين صبحي ، « تاريخ الجنس العربي » « المعرفة » العدد ٥٩ ، دمشق ، كانون الثاني ١٩٦٧ ص ١٣٩

وفي كل الأحوال ، ظهرت في الجزء الثاني « روما وأمبراطوريتها » مركزية واضحة تتجه إلى أن تأخذ بعين الاعتبار مركز الثقل السياسي والاقتصادي والعسكري في تاريخ العالم في تلك الحقبة من الزمان .

فإذا كان هذا هو المنطلق فيتوجب أن يكون عنوان الجزء الثالث « الامبراطورية العربية والقرون الوسطى » على اعتبار :

١ ـ أن الامبراطورية العربية بين الصين وفرنسا استمرت من ٦٣٤ ـ ١٤٥٣ م ، ولا عبرة بالانقسامات السياسية أو الحركات الاستقلالية القومية أو المذهبية . فهذان التاريخان يحددان فتح سورية على يد العرب المسلمين وسقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين. إذ لا يصح أن يتخذ سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ تاريخاً لسقوط الحكم العربي ، إذ كان الفاطميون ثم المماليك في القاهرة يجسدون السيطرة العربية على البحر المتوسط أتم تجسيد ، فضلاً عن أن غرناطة العربية لم تسقط بيد الكاثوليك إلا في ١٤٩٢ . كما أن السيطرة العثمانية لم تظهر في عهد عثمان الذي لم يكن أكثر من رئيس قبيلة ، ولا في عهد مراد الذي استولى على اندرنيوبوليس ، ولا في عهد بايزيد أسير تيمورلنك سنة ١٤٠٢ في أنقرة .

٢ ـ ان الحضارة العربية ونظام الحكم الاسلامي أكثر أصالة وابتكاراً من الحضارة الرومانية ، ان وجد شيء يستحق مثل هذا الاسم . ففي حين اعتمد الرومان ـ وافتخروا بذلك ـ على مفهومات الحضارة اليونانية ومعطيات الفكر الهليني في الفنون والعلوم الاجتماعية والانسانية ، قدمت الحضارة العربية نظرة الى الكون تتسم بالصلح بين الانسان والطبيعة تحت مشيئة الله ، وموقفاً من الانسان يبغي تحقيق العدل بالسوية بين الناس على اختلاف عروقهم وطبقاتهم ودياناتهم، على

حين أن الحضارة الرومانية بنيت على أساس تفوق العرق الروماني ، وسخرت شعوب الامبراطورية بأكملها لاطعام أهل روما المقدسة !!

٣ – تقاس عظمة الحضارة باشعاعها . على هـذا الأساس تمجد أوروبا حضارتها الحديثة والحضارة اليونانية القديمة ، بدعوى أن اشعاعهما شمل معظم أرجاء المعمور من الكون .

فإن كان هذا المقياس صحيحاً ، فماذا بقي من الحضارة الرومانية انجازاً واشعاعاً ؟ لم يبق شيء يستحق الذكر في العصر الحديث ، وهل ثمة من لايبصر اشعاع الحضارة العربية ـ الاسلامية في الصين ، في الهند ، وأفريقيا ، في تركستان وفي الأندلس ؟ أم أن المقياس الذي تعامل به حضارة أوروبية لاينطبق على حضارة عربية ؟

٤ – ومما قطع لي بسوء النية في هذا الكتاب الذي قصد به التحامل على الحضارة العربية وغمط حقها ، تفضيل الامبراطورية العثمانية على الامبراطورية العربية ، والتسليم للأولى بما هو حق يسلبه المؤلف من الثانية .

أ – فبعد فتح القسطنطينية ومصر والتبعية الاسمية التي دانت بها بلدان شمالي افريقيا للعثمانيين ، يعلق المؤلف عما بعد ١٥٤٠ م .

« .. وهذه الامبراطورية الجديدة ، التي لم يبق لها سوى أن تمكن في الأرض وترسل جذورها عميقاً فيها ، قد حققت وحدة الشرق الادنى ، هـذه الوحدة التي أذهبتها وعبثت بها ، منذ أكثر من ألف سنة ، هذه الدول التي دالت على المجريات السياسية التي عرفتها هذه البقعة من الأرض . وفي هذا يصح أن تعتبر ذاتها الخليفة الشرعي والوريث القانوني لروما » ج ٣ . ص ٥٨٦

إلى أي مدى يمكن أن يذهب الحقد على العرب ؟ ان الألف سنة التي

يقترح المؤلف (كلود كوهين) حذفها من تاريخ العالم هي عصر السيطرة العربية حين تفتحت حضارة العرب ، وانطوت مخازي البربرية الرومانية العرقيـــة والعسكرية والدينية الى غير رجعة .

والحقد على العرب هو الذي يدفع المؤلف « كلود كوهين » إلى المغالطة واغفال الحقائق . فأما المغالطة فتبدو في هذا النص حين يستخدم المقاييس لطمس الحقائق الحضارية : لقد استطاع « كوهين » أن يصر الوحدة السياسية التي فرضتها الامبراطورية العثمانية بعد أن مهدلها العرب بألف سنة من الحضارة المبدعة - الألف التي يريد كوهين حذفها - وغابت عنه الوحدة السياسية والحضارية التي أوجدها العرب في دولة تزيد إلى الضعف في حجمها وتنوع شعوبها عن الامبراطورية العثمانية . صحيح أن الدولة المركزية تفككت في بداية القرن الرابع الهجري ، لكن القانون العربي والسيادة العربية في الدولة ومصيرها ظل أمراً يعود إلى العرب حتى ما بعد أزمان محمد الفاتح بكثير . فباسم الاسلام - كما لاحظ أنطوني ناتنغ في كتابه « العرب » - تعاون العرب مع الأتراك دون نظر إلى أمر السيادة . وقد ظلت الامبراطورية العثمانية قائمة ماقام التعاون العربي - التركي . وحين انفرد الأتراك بالسلطة بعد القرن السادس عشر فقد المجتمع مقومات الدفع الحضاري العربي فتصلبت شرايين الامبراطورية وبدأت تسقط قطعة قطعة في أفواه ثعالب أوروبا الاستعمارية .

ب - ان العالم لايذكر اليوم من الامبراطورية العثمانية سوى « الرجل المريض » و« الانكشارية » و« مذابح الأرمن و اليونان » . أما العرب فيذكرون بابن سينا والبيروني والمعري والفارابي والكندي، مثلما يذكرون بالانبيق والجبر والسكر، وحرية التجارة، والتسامح الديني . ناهيك عن مدنية كان أصحابها الأتراك

« يفكرون بالايرانية مايكتبونه بالعربية ، وان جهل السواد الأعظم من مواطنيهم اللغة التي يكتبون . » - ج ٣ ص ٥٩٠ - . فأين هذا الواقع من واقع العرب حين طلعوا على العالم بحضارة كاملة في لغتها وتشريعها وآدابها الاجتماعية وفنها العسكري !!

بالرغم من كل ذلك يحاول المؤلف « كلود كوهين » أن يقلب الأمور ويبرهن على نظرية العكس :

« هل ترد المحن التي مر بها الشرق الاسلامي إلى قيام السيطرة التركية يا ترى ؟ ان الرأي المتأثر - على الأرجح - بما انتهت إليه الامبراطورية العثمانية في القرن الأخير من انحطاط وفقدان اعتبار ، لايتورع عن التأكيد بأنها خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً . ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن ؛ إذ أن الأتراك لم يحتلوا آسيا الاسلامية دون أن يستدعوا لهذا العمل أو يساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الألوان الأدبية على الأقل قد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان الانحطاط أخيراً لم يحدث إلا في القرن السادس عشر - أي بعد انقضاء خمسمائة سنة على فتحهم . » ح ٢ ص ٣٣٦

مرة أخرى يستخدم المؤلف المغالطات السياسية وسيلة لطمس الحقائق الحضارية . ففي عهد السيطرة التركية الأول وهو العهد السلجوقي - من (١٠٥٥) عند دخول أرطغرل بك إلى بغداد إلى ١٢٤٣ تاريخ سقوط سلاجقة الروم - لم يكن الأتراك أكثر من جيش مرتزق منعزل تمام الانعزال عن حياة المجتمع العربي المتقدم . صحيح أنه كان يتلاعب بالخلفاء والوزراء بحكم قوته وضعفهم ، غير أن استمرار ازدهار الحضارة - أو حسب تعبير الكاتب « ان الفن وبعض الألوان الأدبية على الأقل قد تابعت انطلاقها بعد فتحهم » - يعود إلى نقصان

سيطرتهم على المجتمع ، وإلى وجود مشاركة عربية في الحكم تتيح « للفن وبعض الألوان الأدبية ، أن تتابع انطلاقها . كما أن المؤلف نسي قانون المحاكاة الاجتماعي الذي جعل السلاجقة يحاكون عظماء العرب في رعاية الفنون والآداب .

ولم ينفرد الأتراك بالسلطة الا بعد القرن السادس عشر ، وعند ذلك حدث « الانحطاط أخيراً » حسب قول المؤلف . ويمكن - حتى دون الرجوع الى اشبنجلر وتوينبي - مقارنة استدعاء الأتراك إلى قلب المجتمع العربي باستدعاء الجرمان إلى قلب المجتمع الروماني ، وذلك دون أن يجرؤ مؤلف واحد على ترديد زعم كزعم كوهين بأن برابرة الجرمان جعلوا « الفن وبعض الألوان الأدبية على الأقل ، تتابع انطلاقها » في روما .

ح - يقول المؤلف في الصفحة « ١١٤ » مايلي :

« بقي أن نقول إنه إذا ما أدت الفتوحات الجرمانية إلى تقسيم أوروبا ، فالفتح العربي أدى بدوره إلى وحدة الشرق الأوسط . »

فأي الرأيين هو الصدق ؟ هل الفتح العربي « أدى بدوره إلى وحدة الشرق الأوسط » ص (١١٤) ، أم أن هذه الوحدة « أذهبتها وبحثت بها منذ أكثر من ألف سنة ، هـــذه الدول التي دالت مع التجربات السياسية التي عرفتها هذه البقعة من الأرض » ص (٥٨٦) ؟

وان كوهين يستثمر خطة عامة هي « المركزية الأوروبية الصليبية » التي تحط دائماً من قيمة الحضارة العربية - الاسلامية . فلو عدنا إلى مقدمة الجزء الثالث كله ، وجدنا المشرف العام على موسوعة « تاريخ الحضارات العام » الأستاذ موريس كروزيه ، يصدر هـــذا الجزء بكلمة لتبرير تسمية الكتاب ، يقول فيها :

« فقد أصبح من المتعذر ، ان لم نقل من المستحيل ، التكلم جملة عن عالم متوسطي ـ قلب المدنيات القديمة والمحور الذي قامت حوله ـ منذ اللحظة التي نحت فيها كل من أوروبا الجرمانية ـ اللاتينية ، والشرق البيزنطي ، وبعدهما بقليل ، الشرق الأدنى الاسلامي ، اتجاهاً مغايراً للآخر . » ص (٩) ، وكان قد قرر قبل صفحة :

« فقد كانت بيزنطية والعالم الاسلامي والامبراطوريات الأخرى التي تركزت في أواسط آسيا مركزاً لحضارات باسقة من أزهى وأزهر ماسجل التاريخ من أمثالها ، هي هذه الحضارات بالذات التي عرفت أن تحافظ وتحتفظ بالتراث التليد ، الذي خلفته روما واليونان قديماً . » ص (٨)

والآن : مادام تفتح الحضارة قد انتقل الى الدولة العربية ، فلماذا لم يسم الجزء الثالث باسمها ، خاصة وأن تقسيم التاريخ إلى قرون قديمة ووسطى « لامعنى له إلا فيما يخص أوروبا الغربية » حسب قوله ص (٧) ؟

يبدو أن « المركزية الأوروبية الصليبية » تأبى إلا أن تذر قرنها سواء في التحالف المزعوم بين قبلاي خان وبابا روما ضد الاسلام ، أو في النظر الى اسلام سكان البلاد العربية وعروبتهم بعد الفتح وقبله .

وعلى هذا النهج الفكري سار المؤلف « كلود كوهين » ، الأستاذ في السوربون ، في الفصول التي كتبها عن تاريخ بيزنطية والعالمين الاسلامي والصقلبي . فهو يعلق على أحوال « سكان البلاد الوطنيين » بعد الفتح العربي ، فيقول :

أولاً ـ « لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ، ولا على السواد الأعظم من سكان المدن ـ وكلهم غير مسلم ـ أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد أخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ينظمون أحوالهم ، ويضبطون شؤونهم

الدينية والكنسية الخاصة بعد أن تخلصوا من مضايقات العـاصمة وازعاجها . وسيدفعون غالياً في المستقبل ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي . » ص ١١٨

ما هو هذا (الثمن الغالي) ؟

ان المؤلف يطلق جزافاًهذه الصيغة المبهمة المرعبةالمسيئة الى صميم الحضارة العربية ، دون أن يشرح ماهية هذا الثمن الغالي .

طبعاً يوحي سياق الكلام أنه يعني بـ « الثمن الغالي » دخول سكان البلاد في الاسلام . لكنه قبل صفحتين ، أي في الصفحة ١١٦ كتب :

« قلما عرف التاريخ ، والحق يقال ، فتوحات كان لها في المدى القريب على الأهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثـه الفتح العربي لهذه الأقطار . فمن لم يكن عربياً من الأهلين لم يشعر بأي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من أهل الكتاب ، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وان لا يضاموا . وكان لا بد من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزردشتية والمانوية والبوذيةوصابئة حران ، هذه الطائفة التي كان أصحابها يعبدون النجوم والكواكب وغيرها من الملل والنحل الأخرى . »

ان المقدمات لا تؤدي الى نتائجها المنطقية عند المؤلف ، مـا دام الأمر يتعلق بالعرب والاسلام : فاما ان اليهود والنصارى والزردشتية والمانوية والبوذية وصابئة حران وغيرها من الملل والنحل الأخرى « حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا »، وبالتالي فإنهم لم « يدفعوا غالياً ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي » ، ويكونون قد أسلموا بملء رضاهم لأن القرآن الكريم يفرض التسامح على العرب « لا اكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي » ،

وإما العكس بالشكل الذي تجسد فيه الظلم والعسف من الامبريالية والصهيونية ضد العرب .

أما أن يقال انهم (تمتعوا بالتساهل) ولأنهم (دفعوا غالياً) ثمنه ، فذلك كلام يخالف المنطق مثلما يخالف التاريخ سواء بسواء، خاصة وأنه يسجل في اكثر من مكان أن بعض زعماء العرب كان يقاوم انتشار الاسلام لئلا تتدنى حصة المتنفعين من الضرائب ص ١٢٥ .

ثانياً – بعد أن يصور المؤلف تفتت الدولة العربية في القرن الحادي عشر الميلادي والعاشر أيضاً ، يعلق بما يلي :

« بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، ولم يعد من الدقة في شيء التحدث أو التغني بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال قوياً بين أقسام هذا العالم . وسيبقى هذا الشعور الميزة التي تطبع تطبع العالم الاسلامي ، بالرغم مما اعتوره من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الألف من السنين التي تعاقبت عليه . »

مرة أخرى . يخطىء الكاتب القصد . فبين الشعور بالتضامن ، وبين التشتت السياسي ، خط لا يلمحه أحد أكثر من مؤرخ الحضارة . ان وحدة الحضارة هي التي تخلق الشعور بالتضامن والشعور بالمصير الواحد . ان عناصر هذا الشعور لا تعود فقط الى الفتح العربي والثقافة الاسلامية ، بل ان جذورها تضرب في الزمان البعيد منذ الحضارة الأكادية والفرعونية ، بدافع وحدة الأرومة في الحضارة والدم.

ثالثاً – على أن الاجحاف يتخذ أشكالاً متعددة ، تتجاوز كل ما ذكرناه إلى نوع من انعدام الأمانة العلمية عن طريق اغفال ذكر الحقائق ، دون ذكرها

يخالفها طبعاً ، بحجة انعدام المصادر التاريخية الموثوقة .

فالدين الاسلامي لم يخضع لأي تحليل نظري على يدي المؤلف. لقد أغفل هذا أية اشارة إلى قدرة الاسلام على تطوير القيم السائدة في العصور القديمة. وعامل الفتح العربي على أنه غزو قامت به القبائل البدوية ضد الحضر المتمدنين بالمدنية الرومانية . لهذا استغرق معه بحث فجر الاسلام - من القرن السابع إلى القرن التاسع - أقل من أربعين صفحة « من ١٠٩ - ١٤٤ » . كما أن حضارة الاسلام بين القرنين التاسع والعاشر لم تستغرق على يديـــه أكثر من خمس وعشرين صفحة « ١٨٩ - ٢١٤ » . فتكون الحضارة العربية في القرون الأربعة الأولى قد بحثت في حيز لا يتجاوز الستين صفحة ، مع العلم أنها تخلو من أي تحليل نظري لأصول المجتمع العربي المتكون وأهدافه .

أضف الى ذلك أن الحضارة العربية حرمت على يدي المؤلف حتى من ميزة حفظ الفلسفة اليونانية ونقلها إلى أوروبا ، فضلاً عن زيادة المفكرين العرب على ذلك التراث وتطويره . فنرى الأستاذ جورج دوبي ، أستاذ الآداب في جامعة ايكس يتهم العرب حتى بتشويه التراث اليوناني فيقول :

« وقد أعطت المخطوطات اليونانية بنوع خاص ، دروساً أعظم صراحة عن مؤلفات أرسطو ، بعد أن نزع عنها غشاء المفسرين المسلمين المشوه. » ص ١١٨

مثل هذه الأحكام كثيرة ، وهي تلقى جزافاً دون برهان ولا سند ولا تبرير . أما مؤلفات ابن رشد وابن سينا والفارابي التي ظلت تدرس حتى أواخر القرن السابع عشر ، فيكاد التنويه بها يقتصر على مجرد الاشارة ، دون أي بحث متعمق لتأثير الفكر العربي - بعد أن حل مشكلتي التوفيق والتفريق بين الدين والفلسفة - على الفكر الغربي الذي نما في الأديرة خلال القرنين الخامس عشر

والسادس عشر ، ثم انتقل الى الجامعات ونقل معه اليها المؤلفات العربية العلمية والفلسفية حتى آخر القرن السابع عشر .

ويعادل هذه الأحكام التي تكاد تكون تعسفية ، التركيز على الأقليات العرقية والدينية من حيث المبالغة في الدور الذي لعبته في الحضارة العربية . ان العرب إذ يفخرون بتسامحهم الذي اتاح لمختلف الطوائف – النساطرة ، الصابئة ، اليهود ، النصارى – والأمم – الفرس ، الهنود ، البربر – أن تزدهر في كنفهم وتشارك في ازدهار حضارتهم ، لم يكونوا يرون في نشاط هذه الأقليات شيئاً خارجاً عن مجرى الحضارة العربية أو متفوقاً عليها ، كما يحاول المؤلف أن يوحي لقارئه أحياناً ، وذلك لأنهم لم ينطلقوا في بناء دولتهم من أحد التعصبين العرقي أو الديني ، اللذين أنهكا أوروبا في حاضرها وماضيها . بل ان نظرية التسوية التي فرضها القرآن والسنة جعلت الحضارة العربية تنطلق من منطلق انساني أي أممي .

إن محاولات التكبير والتصغير هذه تصدر جميعها عن روح واحدة : انكار الحضارة العربية على العرب ، ومحاولة البحث عن مصادر غير عربية للحضارة العربية !!

وأعتقد أن سبب ذلك يعود الى ايمان المؤرخين – الأوروبيين خاصة – بضرورة عكس الحاضر على الماضي : أي أن اهتمامهم بماضي أمة يتناسب مع أهمية حاضرها . وقد انعكس التشتت العربي والتخلف الحضاري الحاليان على مركز العرب ودورهم في التاريخ ، بالإضافة إلى قلة الدراسات التاريخية الحديثة باقلام مؤرخين عرب . ولو رصدت الدول العربية الأموال اللازمة لانشاء « الجمعية العربية التاريخية » لوضعت هذه الجمعية مشروعاً لعشر سنوات ، تدرس فيها التاريخ والحضارة العربيين ، فيكون مؤلفها مصدراً مفصلاً شاملاً ، فضلاً عن

أنها ستطرح قضايا في تقييم أثر الحضارة العربية على العالم تجعل كل مؤلف يطرق هذا الموضوع مضطراً إلى مناقشتها واتخاذ موقف منها .

الحقيقة أن التخلف في مجال الدراسات التاريخية والحضارية جزء من التخلف العام ، لكن معركة العرب في المحافظة على تاريخهم ليست بحال ، أقل من معركتهم في المحافظة على وجودهم ، أو في تطوير حاضرهم . ان العرب إذا لم يوجدوا في كل المجالات فان سلبهم سيستمر ، اقتصادياً وسياسياً ، بل تاريخياً وحضارياً .

د. ه. لورنس والعمال

يسرى الأيوبي

لقد كتب كثير عن لورنس منذ وفاته، حتى ليصعب على الناقد الحديث بنظرة جديدة الى الأمور ان يضعه في المكان الجدير به، دون زيادة او نقصان . لقد أصبح نبياً ومعلماً ، وقورن بالمسيح .ولا شك انه عبقري فذ كشف عن الحياة الانسانية بحكمة ونفاذ بصيرة، وقدس الحب البشري وأبدى رأيه في الثقافة والمجتمع ؛ ولكنه كنبي يشبه نيتشه، قائد لأمل مهجور في جنة مزيفة؛ وتعاليمه مجموعة من التناقضات والطوباوية .

وموقفه من الجنس هو موقف فرويد وتفسيره للأمور . ويحاول جاهداً ان يجعل من الجنس قضية الحياة الأولى والأكثر أهمية من كل ماعداها، وهو إذ يصور العلاقة مابين الرجل والمرأة لاينتهج اسلوب الاثارة الجنسية التي ينتهجها تسعون بالمائة من الكتاب بغية الربح الرخيص ، بل انه يعتمد العمق والصراحة والاخلاص فيما يكتب ، ويجرد القضية الجنسية من كل مايشوهها ويحاول ان يبعدها عن الاطار الاجتماعي، وهي في الواقع نتيجة له. واما موقفه الاجتماعي ، فبالرغم من انه ابن عامل منجم الا انه لاينتمي نفسياً الى طبقته ، وهذا ماجعله يفقد الانتماء الى اية طبقة اخرى ويشعر بالغربة في اي وسط ، مما ادى به الى اعتناق فلسفة « سيادة الكفاءة الفردية » التي ادت بدورها به الى ميول فاشية .

ان موهبة لورنس الكبرى هي عمق نظر مباشر في الطبيعة ، والتجربة الانسانية حيث تكون اقرب ما تكون من الطبيعة والحياة الغريزية ، ولهذا كان يحق افضل من كتب في العلاقة بين الرجل والمرأة، كانت هذه المرأة إما أم حبيبة أو زوجة . وقصة « الابناء والعشاق »[1] هي وصف رائع للعلاقة بين أم وابنها ؛ وقصة « قوس قزح » هي معالجة مدهشة للعاطفة بين رجل وامرأته . وليس فيما كتب لورنس شخصيات تبقى طويلاً عالقة بالذهن ، وهو نفسه قد أعترف بعدم اهتمامه بالشخصيات . ان ما هو حيوي بالنسبة اليه : «لست أنا ، بل الرياح التي تهب في اعماقي» . وكان يرى أن هذا الفيض الانساني قد سمم بالانظمة والتصنيع وجمع المال حتى أصبحت حياة الانسان العصري مملوءة بالزيف . وهو رائع في نقده المباشر لكل ما يشوه الحياة ، الا ان نظرته وحيدة الجانب ،

(١) Sons and Lovers by D. H. Lowrence Penguin Books Printed in Great Britain by Co Wyman Ltd . 1966

غير كافية لفهم تعقيدات النظام الذي تترابط فيه كل الأمور لتؤلف كلا واحدا فالاخلاق والعادات والقيم غير منفصلة عن اطار نظام بعينه ، وكل تطوير لها يحطم ذلك الاطار، وعبثاً يحاول أي مصلح ان يحتفظ بإيجابية نظام دون سلبيته. فاما ان يقبله ككل او يرفضه ككل . لأن لكل نظام إيجابيته وسلبيته الخاصة به والمعتمدة على القوى المتصارعة فيه بين دافعة للتقدم ومعرقلة له حسب الظروف المادية التي تستمد منها وجودها . فعندما تستشري القوى السلبية في مجتمع حتى يعسر القضاء عليها دون كسر الاطار الاجتماعي لها لا يمكن الاحتفاظ بالقوى الإيجابية القديمة في شكلها الجامد في نظام أعلى لأن ظروفها المادية تتغير ، ويبرز الى الوجود قوى إيجابية جديدة ومعها قوى سلبية جديدة أيضاً تصارعها .. ولا يكون المجتمع الجديد اكثر تقدماً بانتفاء كل سلبية فيه، ولكن بغلبة قواه الايجابية وبمرونته وقدرته على الانفتاح للحياة والتقدم . ولهذا كان نقد لورنس للمجتمع والحياة عميقاً نافذاً في الجزئيات الا انه مقصر في الشمول . وكانت رؤيته غبشة ولم يكن لديه الصبر والتواضع ليتركها تنجلي لديه . وفي قصة « الرجل الذي مات »[1] يبدو لنا واضحاً ان لورنس يرغب في البعث دون قبر . فالقصة الرمزية تفترض ان المسيح قد قام من لحده بعد الصلب وقد تخلى عن كثير مما كان يؤمن به من قبل ويعيش على الأرض ضعيفاً ولا تعود له القوة حتى يتزوج كاهنة إزيس . لقد خيل للورنس انه وجد النقطة التي تلتقي فيها الحضارتان دون شره الأخذ أو شره العطاء ، ولكن مزج ايجابية الحضارات المتباينة في نظام واحد وتجميدها يجعلهـــا شبيهة بالأوزة التي تحلت بذيل الطاووس ورقبة البجعة ومنقار مالك الحزين فاصبحت غير قادرة على الحياة .

---

(١) Penguin Books. Love Among the Haystocks by D. H. Lowrence
Printed in Great Britain by C. Nicholls & Company ltd. 1965. 125 .

ان قصص لورنس هي غالباً رمزية ، وشخصياتها تجسيد لأفكار يرغب الكاتب في إيضاحها . ولقد قيل عن قصة « عشيق السيدة تشاترلي »[1] انها رمز لانهيار طبقة وقيام طبقة أخرى ،لأن بناء القصة يجعل السيدة تشاترلي تتخلى عن زوجها الارستقراطي المشلول، لتعشق حارس الغابة البروليتاري النابض بالحياة . والصعوبة في القصص الرمزية هي أن يقرن الكاتب العناصر الميثولوجية والواقعية في نسب متوازنة ، وهذا ما لايفلح فيه الكثيرون ،فتأتي القصة بعيدة الى حد ما عن الواقعية الحية . وتقع الفوضى حين يعطى لبعض الشخصيات ادوار رمزية بينما يحرم منها شخصيات أخرى لها تأثير في سير الحوادث ، او أن توجد شخصيات مختلفة الانماط في أوضاع واقعية مختلفة في ظروفها . وبالرغم من تلك الصعوبات فإن الرمزية تجتاح القصة الحديثة بسبب الصراع الفكري البارز في هذا العصر وهي عند لورنس تقترن بتعقيدات الحياة الجنسية ليجعلها نابضة بالحياة .

اما في قصة « الابناء والعشاق » التي كانت أول قصة له ،ولها طابع سيرة حياته ، فهي بعيدة عن الرمزية وتنتهج الواقعية العفوية . والقصة في نظر بعض النقاد افضل اعمال الكاتب ،وفي نظر آخرين اسوأها . اما في رأيي فهي تجربة شخصية فردية لها قيمة في فهم الكاتب ، وهي دراسة حية لعالم النفس ، ولكنها غير متطورة لتتضمن ادراكاً من الكاتب في فهم تجربته على ضوء الواقع العام . وليست للتجربة الشخصية قيمة في فهم الواقع الموضوعي وقد تكون مناقضة له ، وعدم تحليلها قد تصل بالأديب الى مفهومات خطيرة . والاستجابة التلقائية للحياة لا تقرب الكاتب من الواقع ، فقد يكون عطفه في غير موضعه ، و كرهه في غير موضعه ، ويستخلص مواقف خاطئة بسبب قصور وعيه .

---

(١) Lady Chaterley's lover by D.H. lawrence. Penguin Books

ان الكتاب مبني على تجربة واقعية كما قلت ، فبول موريل هو لورنس نفسه يصف طفولته ومطلع شبابه . انه كالكاتب ابن عامل منجم يعيش قرب نوتنجهام ، وموريل الأب كلورنس الأب ، فظ الطباع ، جميل الطلعة ، غير متزن . والسيدة موريل كوالدة لورنس تتحدر من عائلة برجوازية متوسطة ، لطيفة المعشر ، متدينة ، صلبة الرأي ، طموحة بالنسبة لابنها الموهوب . والكتاب يستهوي بطابعه النفسي في تصوير علاقة بول بامرأتين ، ماريام وكلارا من جهة ، وأمه من جهة أخرى . وفيه حيوية في وصف يقظة العاطفة وفي الصراع الحائر بين مزاجين متباينين : هو بطبعه الناري ومريام بمزاجها البارد وعاطفتها التي اخمدتها التربية الدينية ، وفي شبق العاطفة لكلارا ، وفي الحزن لمرض الأم وموتها ، وفي الشعور باليأس بأن الحياة لا معنى لها ..

وقصة الأبناء والعشاق تملك تلك الوحدة الفنية التي تجعل كل جزء فيها ضرورياً للبناء : فمثلاً المشاجرات بين السيدة موريل وزوجها في أوائل القصة ضرورية لفهم التطور النفسي عند بول ، وموقفه من المرأة فيما بعد هو نتيجة حتمية لتأثير الأم الكبير عليه . فالحب لها والاعجاب بها وكل شعور نحو أية امرأة أخرى هو مجرد شهوة وليس حباً .

ان قصة السيدة موريل هي قصة المرأة التي يخيب أملها بالزواج فتفنى في حب ابنائها ، وهذا الفناء هو في واقعه نتيجة لعدم اتزان الحياة الزوجية ، فلو كانت سعيدة لعلمت ان أبناءها ليسوا لها وأنه لاحق لها في أن تستأثر بهم وتستعبد عاطفتهم . ويخفي هذا الفناء انانية مفرطة ، لأن الأم تطلب ثمناً باهظاً لتضحيتها : وهو منع عاطفة ابنائها من النمو في اتجاه آخر نمواً سليماً . لقد كرهت السيدة موريل مريام كرهاً أعمى لأن مريام تملك كل المؤهلات التي تسيطر بها على قلب

ابنها ، فهي قادرة على أن تكون له أماً وصديقة ومشجعة ودافعة المجد ، فهي مثلها لطيفة صلبة الرأي طموحة بالنسبة لبول وتملك الحس الأدبي الذي تستطيع به أن تكون ناقدة خبيرة لأعمال بول الأدبية ، ولو كانت مريام تملك القدرة على العطاء الجنسي الذي كانت كلارا قادرة عليه لاستطاعت أن تفصل بول عن أمه الى الأبد . ولكن خمود الرغبة لديها جعل عشرة سبعة أعوام في صداقة متبادلة تضمحل فجأة وتنقلب في نفس بول الى كره وعداء ؛ لأن ما كان يطلبه منها هو ليس هذا الذي كانت أمه تعطيه إياه ، بل العلاقة الطبيعية بين رجل وامرأة ، وهذا ما لم يكن في مقدور مريام أن تعطيه ، فلقد أدركت بالتجربة التي جرها اليها أن شيئاً ما قد مات في أعماقهـــا نحو الرجل . وكانت حالتها أشد سوءاً من حالة السيدة موريل مع زوجها لأن هذه قد عرفت الهناء الزوجي في أوائل حياتهـــا . وكان فشل زواجها نتيجـــة للضيق المادي وشظف العيش ونتيجة لطبع السيد موريل الفظ وعاداته السيئة وضحالة تفكيره .

تقول الأم عنها : « لا أستطيع أن احتمل .. يمكنني التغاضي عن أية امرأة غيرها .. انها لن تترك لي مكانا ، لن تترك لي حتى مكانا صغيراً .. وأنا لم يكن لي ابداً ، كما تعلم يابول ، زوج بالمعنى الحقيقي[1] . »

لقد وقفت مريام والأم على قدم المساواة في قدرتها على العطاء . فلما آن الأوان لبول أن يختار بينها لاستحالة الانسجام بين المرأتين ، إختار امـــه لأنها أقرب اليه ، ففشلت علاقته مع المرأة الأولى التي احبها .

وكانت المرأة الثانية هي كلارا ، وهي على نقيض مريام . تنقصها الكفاءة

---

(١) Sons and Lovers p. 262

الذهنية ، الا أنها تملك حيوية الرغبة . فكانت الأم راضية عن هذه العلاقة لأنها لاتهدد نفوذها ، ومطمئنة لنتيجتها بعدم الدوام فهي تفهم ابنها ، وتفهم أن امرأة ككلارا لايمكن أن تكون في حياة بول إلا شيئاً عابراً ، لأنهالاتستطيع أن ترضي أشواقه العليا ، وتدرك أن وضعها الاجتماعي ، بزواجها السابق ، يجعل الزواج بينهما حماقة لايقدم عليها بول ،ولا حتى كلارا نفسهاالتي مريعاً ماتكتشف زئبقية بول وتفضل عليه زوجها الثابت العاطفة .

وهذا ما كان : لقد فشلت علاقة بول مع المرأة الثانية التي احبها كمافشلت حياة اخوته الآخرين ، بل ان موت وليم ، ابن السيدة موريل البكر الذي كانت تحبه أشد الحب ، كان هروبا صامتا من الحياة لأنه لم يكن ليستطيع أن يحتفظ بحب امه الكبير له ، وبارضاء رغباته الخاصة معاً .

ان مثل هذا الحب الأناني الذي لايستهدف بنتيجته سعادة الأبناء ونموهم العاطفي السليم ، والذي يأخذ من وجودهم اكثر مما ينبغي ، تكون له في كثير من الأحيان ردة فعل خطرة في نفوس الأبناء . ونحن لانجد مثل هذا الانعكاس الخطر في قصة الابناء والعشاق ، ولكننا نجده في قصة لاحقة هي «السيده الجميلة»(١) . فموضوع القصتين متشابه ولكن « روبرت » ينتهي به الأمر الى أن يرى في امه التي كانت تسحره بما تملك من سر الشباب الدائم امرأة عجوزا متغضنة الوجه كأنها ساحرة شمطاء ، وامتلأ قلبه بالكره لها .. أي أن عاطفة الأبناء قد تتحول الى قسوة لامبرر لها بعد عبادة لامبرر لها أيضاً . ونحن نلمس بوادر هذه القسوة في ضحكة بول الهستيرية بعد أن وضع المخدر في كوب أمه فقضى عليها ليخلصها

(١) Penguin Books. Love Among the Haystacks by D.H. Lawrence

من العـــذاب اثر نزع طال أمده . . كانت الضحكة مشحونة لا بالحزن الذي لايحتمل في مثل تلك الحال ، بل بالارتياح أيضاً ،لأنه لم يضع حدا لعذاب امه فقط بل لعذابه هو بسببها . . .

أما من الناحيـــة الاجتماعية فتجربة بول مع والده قد جعلته يكره لا والده فقط بل الطبقة التي ينتمي اليها . . فلماذا جعل السيد موريل نفسه هكذا غير مرغوب فيه في عائلته حتى كتب لورنس للناشر في ذيل قصة الأبناءوالعشاق: « انها قصة ابناء يعشقون امهم ويكرهون أباهم » ؟.

لقد كان ذنب موريل الأول ان مجتمعه لايعطيه حقه مقابل الجهد الذي يقوم به كعامل منجم يعرض وجوده للهلاك في كل يوم، ويقوم بعمل جبار لقاء شلنات لاتكفي أود عائلته . فهو رجل بسيط طيب وكل سلبية فيه هي نتيجة وضعه غير المنصف . . لقد كذب على زوجته بايهامها بأنه يمتلك بيتا وأثاثا ، وهو لايملك شروى نقير، لترضى به . فكان هذا الكذب بداية النهاية لعلاقتهما ، فقد احتقرته ولم تغفر له ابداً ، وكان فظاً في معاملتها لأنه ظن أنه بوسعه ان يمتلك بالقوة ما لم يستطعه بالاحترام ، فكانت النتيجة اتساع الهوة بينهما . والتجأ الى الخمر ليغرق فيه تعاسته ، فكانت الطامة الكبرى ، إذ غدا في نظرها فاقد المسؤولية لاتجاهها فقط بل تجاه ابنائه ، يسرق غذاءهم ليشبع ميوله السيئة . وكانت له طرق خشنة في معاملة الأبناء لاتنسجم وطرقها المعتمدة على الثقافة وعلم النفس . ففقد أبناءه أيضاً واصبح لايمت الى بيته بصلة ولا تربطه بأفراد اسرته الا تلك الشلنات المعدودة التي كانت تتضاءل كلما كبر الابناء وازداد هو ادمانا وانحلالا .

لم يكن من أحديعطف عليه ولم تكن تطالعه سوى النظرات المزدرية. فالسيدة موريل رغم لطفها في معاملة ابنائها كانت قاسية في معاملة زوجها، بعيدة

كل البعد عن ادراك مأساته والتعاطف معه . فهي تحمله عيوبه ، كأنما هي نابعة من صميمه وليست وليدة ظروفه الاجتماعية وليست نتيجة معاملتها هي أيضاً ..

قالت له لما شاهدت معه فطيرة لحم الخنزير التي كانت قد اشترتها لابنها: « لم اشتر هذه لك اذا كنت لاتعطيني اكثر من خمسة وعشرين شلنا ، وكن واثقاً بأنني لن أشتري لك فطيرة لحم تلتهمها بعد أن ملأت جوفك بالخمر »(١) . فيلقي السيد موريل بالفطيرة في النار ، وعندما يحتج بول على ذلك يلطمه فيغمى على السيدة موريل وتكون هذه آخر مشاجرة للأب في ذلك المنزل بعد أن مل الصراع ليثبت وجوده .

وهذا المشهد يطلعنا على حقيقة معاملة السيدة موريل لزوجها . ولا يملك القارىء وقد أقحمه الكاتب في مثل تلك المشاجرات ، الا أن يمتلىء قلبه بالحزن على هذا الرجل المسكين الذي يلقى مثل تلك الزراية من زوجته ، ويجد في تلك المعاملة من القسوة ما لايجده في فظاظة موريل يوم قذف بها الى خارج المنزل في البرد وهي حامل . لأن مثل هذا الأمر لم يتكرر ، وسورته العنيفة كان يتبعها الصفاء والرغبة المخلصة في ارضائها ، اما حقدها وامتهانها له فقد كان منتظماً على المدى البعيد .. وليس من رجل يجد نفسه كتلة مهملة من زوجه وابنائه ولا يتملكه السخط الذي يبدو في مختلف الاشكال ويقوده الى كل الحماقات .

وهكذا لم يستطع بول أن يرى أباه على حقيقته ، انساناً معذباً ، ولم ير تضحيته في سبيلهم . وكانت تجربته الشخصية من السوء بحيث اصبح هو الآخر طرفاً في النزاع وليس عنصراً حيادياً في المنزل. وكان تعاطفه أبداً مع والدته ضد والده ، ولسنا نجد في احاديثه اي تبرير اجتماعي له او محاولة لاحلال الوفاق بينه

---

(١) Sons and Lovers p. 262

وبين أمه .. ولقد كان من الممكن للورنس ان يتطور تعاطفه مع الطبقة العاملة على غير الشكل الذي تطور اليه فيا بعد ، لولا تلك التجارب السيئة الخاصة به ولولا تأثير أمه الكبير عليه .. يقول بول لأمه ذات يوم :

« اني لا أريد أن أنتمي الى الطبقة الوسطى الغنية .. انني احب الفئات الشعبية اكثر .. انني انتمي اليهم .

ـ ولكن لو قال لك احد هذا الكلام ألم تكن لتغضب ؟ انك تعلم انك تعتبر نفسك مساوياً لأي سيد .

فأجاب: في نفسي وليس في طبقتي،ولا في ثقافتي ولا في طباعي ، ولكني كذلك في اعماقي .

ـ حسناً اذن . لماذا تتكلم عن الفئات الشعبية ؟

ـ لأن الاختلاف بين الناس ليس في الطبقة ولكن في انفسهم . الانسان يأخذ الأفكار من الطبقة الوسطى فقط ، اما الحياة والدفء فمن الجماهير الشعبية. الانسان يشعر بدفقة الحب والكره في نفوسهم .

ـ كل هذا حسن يا بني ، ولكن لماذا اذن لا تذهب وتتحدث مع رفاق والدك ؟

ـ ولكنهم يختلفون نوعاً ما .

ـ ابداً .. انهم الفئات الشعبية . وبمن تختلط الآن من الفئات الشعبية ؟ ان من يبادلونك الرأي هم من الطبقة الوسطى والباقون لايثيرون لديك الاهتمام .

ـ ولكن هناك الحياة .

ـ أنا لا اعتقد أنه يوجد في مريام حياة أكثر مما يوجد في أية فتاة مثقفة ، كالآنسة مورتون . انك انت الذي تحمل حساسية نحو الطبقة [1] . »

كانت تريده بصراحة ان يصعد الى الطبقة الوسطى ، وتعلم ان هذا ليس صعباً عليه . كانت تريده أن يتزوج سيدة .

كان يمكن لبول او الكاتب نفسه ان يفهم الطبقة العاملة بالاحتكاك بها والشعور بقلبها النابض المتدفق بالحياة وبامكانياتها الهائلة ، فيفتخر بانتمائه اليهـا ، ويقودها بذهنه الواعي وعبقريته الفنية ، كما فعل غوركي في روسيا . ولكنه اختار طريقه الواعي وعبقريته الفنية ، فكان كما قلت فذا في الكشف عن الطبيعة الانسانية ، دافئاً في تصويره للحب البشري ، الا أنه طوباوي في مجال الفكر . .

(١) ص ٣١٣ من المرجع السابق .

برودون (١)

عرض وتحليل

ختام الدروبي

أنا ثائر ولست بهدام ..

أنا أبشر بتحرر البروليتاريا ..

ليس لي مذهب ، وأرفض المذاهب

بمثل هذه العاطفية المثالية الثورية المتقلبة يتأرجح فكر برودون بين الاشتراكية أو الملكية ، وبين الثورة او التطور .

ولا شك ان اطلاق لقب « أبو الفوضوية » على هذا المفكر الفرنسي الذي ينتقد الشيوعية والملكية في آن واحد ليس أمراً بعيد عن الصواب .

وليس من قبيل الصدفة ، أن يتفق معظم قراء برودون على أن ثمة تناقضاً

(١) Proudhon, Oeuvres Choisies - Textes Présentés par Jean Bancal Gallimand 1967

برودون ، مؤلفات مختارة ، جمع وترتيب جان بنكال ، ترجمة الدكتور عمر شخاشيرو ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٩

واضحاً في سرد وتطور مفاهيمه عن الاقتصاد والسياسة والفلسفة فبينما هو يعمل هدماً في الرأسمالية والملكية الخاصة واصفاً اياها بسرقة مجهود الكادحين ، نراه من ناحية اخرى مسارعاً الى افهام الآخرين بأنه ليس شيوعياً ، وانه ليس اكثر من اشتراكي ليبرالي معتدل ، او فوضوي في احسن الحالات .

وفي كتابنا الذي نستعرضه الآن نلاحظ أن المؤلف « جان بنكال » من المتحمسين جداً لأفكار برودون ، مفاخراً بأنه تلميذ صَعُبَ حتى عليه فهم أفكار استاذه العظيم .

ففي مقدمته التي يشرح فيها ما جمعه في كتابه عن نظريات برودون ، وعن فكر برودون ككل ، يصف مذهب برودون بأنه مذهب وضعي متماسك ، وفي غاية الوضوح ثم لا ينسى ان يعقد مقارنة بين اصول برودون الشعبية ، ومعاناته البؤس الحقيقي وأصول ماركس البورجوازية ، ثم يتوقف عن متابعة المقارنة فلا يوضح المنهاج الذي اتبعه ماركس في تحليله لأوضاع الطبقة العاملة والبروليتاريا والثورة والرأسمالية . بينما يمضي قدماً في كيل المديح لاستاذه بانشائية عاطفية . ويبرر المؤلف كره برودون لأن يجعل من أفكاره مذهباً يكون اشبه بنظـــام كامل : يقول برودون نفسه : ان شيئاً كهذا هو اسفل كذبة يمكن تقديمها للناس .

ان مايطمح اليه برودون - يقول المؤلف - ليس ان يكون نبياً بل مدرباً . ورائداً للشعب . ورغم أن بنكال يحاول اضفاء أهمية خاصة على الناحية النقدية في فكر برودون التي يرى المؤلف انها تستحق أن تعطيه مكان الصدارة بين المصلحين ، فإن ثمة عيباً اساسياً في هذا النقد ، وهو أنه نقـــد سلبي ليس له بديل ثوري او ايجابي هام .

وحدة آثاره :

ان الملاحظة الاولى في فكر برودون هي مبدأ التعدد ، فعالم الانسان وعالم الأخلاق كعالم الطبيعة يستند الى عدد من العناصر . ومن اختلاف هذه العناصر تنشأ الحياة . ومن مبدأ التعدد هذا استقرأ برودون مجمل مبادئه الفلسفية والاقتصادية والسياسية وهكذا نصل الى اعتبار الجماعات والأفراد في المجتمع جماعات تعددية منظمة ، تستخدم كعامل توازن بين القوى وبين الحريات .

وانطلاقاً من مبدأ التعدد الذي يدعوه استبداد البروليتاريا أي حكم الطبقة العاملة .

ومثل جميع المفكرين الاشتراكيين ـ العلميين والفوضويين والطوبائيين ـ يعطي برودون أهمية مطلقة للعمل ، فهو القوة التي تسمح بتحويل التعددية العضوية الى تعددية اجتماعية منظمة ، وهو جوهر الاقتصاد وهو أساس نظرية القيمة ـ عمل ، ومعظم نظرياته الأخرى كالتضامنية والاتحادية .

وكما قلت في مقدمة الحديث فإن برودون لا يرفض الملكية من حيث المبدأ ، فهو يعتبرها قوة موازنة للدولة وللبروليتاريا كل على حدة ، فهو اذن ينادي بملكية العمال الى جانب ملكية ارباب العمل ، أي يطالب بملكية نسبية تضامنية ان كان في الزراعة أو في الصناعة . وفي هذا المجال يقول بنكال بان برودون يعتبر رائداً من رواد الديمقراطية الزراعية . ثم يتبع ذلك بمشروع اتحاد صناعي زراعي وتشكيل زمر من المستهلكين تكون جميعها نقابة الانتاج والاستهلاك مما يسمح في النهاية ببناء مجتمع اقتصادي مستقل عن الدولة .

وفي الحقيقة فان فصل القوى أو السلطات من الأمور الهامة التي شغلت

فكر برودون . فالمجتمع والدولة حقيقتان موجودتان كل على حدة واستقلالهما هو شرط الحركة وتوازنها .

والموضوع الثاني المثير للانتباه في فكر برودون هو ايمانه بالمشاركة العمالية في الصناعة والزراعة ، وهذا في رأيه السبيل الأنجع لتخليص الكادحين من الشيوعية أو من اشتراكية الدولة . فهو بهذا المفهوم يقترب من تجربة التسيير الذاتي التي تنتهجها يوغسلافيا ، وبعض الشيء : الجزائر . وفي السياسة تبدو جمهورية برودون وكأنها مجموعة اتحادية لها بنيات مختلفة تأتلف مع التعددية الاجتماعية . ويتوسع بناء برودون السياسي والاقتصادي من حدود الوطن الواحد ذي المفاهيم التضامنية الى مفهوم الأممية الأوروبية أو العالمية .

وفي نهاية مقدمة المؤلف يحاول ان يجمل مذهب برودون ضمن أربعة خطوط رئيسية هي :

١ – التعددية الاجتماعية ، وقد تم شرحها في سياق استعراض بداية فكر برودون .

٢ – الجدل السلسلي : وهو مفهوم يحاول فيه برودون ان يجاري نغمة الجدل التي بدأها هيجل بجدل مثالي ، واستمر بها واضاف اليها ماركس بجدله المادي . ويقصد برودون بالجدل السلسلي شرح نظريته التعددية الاجتماعية باسلوب منطور وشبه علمي ، فهو يقول : إن العالم مجموعة عناصر متنازعة متضامنة في آن واحد . وحل هذا التعارض مستحيل ، ولكن وجود السلاسل واختراق الحركة الجدلية للسلاسل المتعارضة تؤدي الى تنظيمها . ويؤلف العمل – الذي يعطيه برودون أهمية كبرى كما أسلفت – يؤلف سلسليه نموذجية ، فالجدل السلسلي

يبدو وكأنه طريقة سير النمو العام للانسان والمجتمع الذي يتطور على شكل سلاسل ذات أزواج متعارضة .

٣ ــ الخط الثالث في فكر برودون هو : مثاليته الواقعية العمالية : يعتبر العمل من وجهة نظر برودون ــ وهذا صحيح بالطبع ــ أثر البشر الذكي على المادة في المجتمع . وتبدو واقعية برودون العمالية في جوهر تركيبها وفي حركتها واساسها وكأنها تعددية اجتماعية وجدل سلسلي ومثالية واقعية .

٤ ــ العدالة والتوازن الملازم للواقع التعددي : الى جانب الأهمية الخاصة التي يضفيها برودون على العمل ، فانه يضفي أهمية لاتقل عن ذلك على مفهوم العدالة ، التي لولاها لتعرض تطور المجتمع التعددي إلى خطر النزاع . ان العدالة هي الواسطة التي يتحقق بها انتقال التعددية العضوية الى تعددية اجتماعية فهي بهذا المفهوم تصبح عامل توازن .

هذا مجمل ماجاء في مقدمة « جان بنكال » عن برودون قبل أن ينقلنا الى قراءة برودون نفسه ، ولا شك أن جان بنكال أفضل من برودون في توضيح افكار هذا الأخير ، فالذي يقرأ برودون في كتاباته نفسه يلاحظ افتقاده الى التنسيق في عرض آرائه ، الى جانب افتقاره الى اسلوب المناقشة العلمية والتحليل العلمي ، رغم احتكاكه المستمر بماركس صاحب أول مفهوم علمي للاشتراكية .

ورغم ان مقدمة بنكال هي عرض منظم لآراء برودون ، فسوف يكون من المستحسن هنا القاء نظرة سريعة على افكاره كما دونها بنفسه .

ــ اقامة اقتصاد اجتماعي : يعلن برودون وجوب اكتشاف علم مطلق للاجتماع في غاية الدقة ، يستند الى طبيعة الانسان يسير بطريق التشريع المقارن والتاريخ .

- الدولة لا يمكن ان تكون بديلاً عن مجموع المواطنين .

- ايجاد نظام للمساواة ، ليبرالي النزعة .

رفض الاشتراكية المتسلطة : يرفض برودون - كما ذكرت في موضع سابق - الديكتاتورية الشيوعية لأنه ليس من الضروري قتل الحرية الفردية في سبيل الاشتراكية بل ينبغي ادخالها فيها . كما أن برودون يربط التاريخ بالمجتمع ولا يفضله عليه ،فهو يرفض اذن حركة التاريخ كما صورها ماركس . ثم ان برودون رغم مطالبته بانصاف العمال واعطائهم حقوقهم واشراكهم في الأرباح والادارة الا انه يرفض على الاطلاق حكم الطبقة العمالية ، ويعطينا صورة مفزعة عن الدولة التي يمكن للعمال ان يحكموها بسبب جهل هؤلاء بنظام الادارة والتشريع والعدالة ،وينتهي برودون الى أن يجعل من نفسه مصلحاً اجتماعياً ليس الا ، حين ينادي بالثروة المتوسطة عن طريق خلق نظام : اقتصاد جماعي تضامني . أي اشراك العمال والملكية في المسؤولية .

ويقودنا مفهوم الثروة المتوسطة الى قانون التوازن بين الطبقات أو القوى ، وهو القانون الذي يعتبره برودون مفتاح الاقتصاد السياسي .

العمل : انطلاقاً من الأهمية التي ذكرت ان برودون يسبغها على العمل فانه يصف باسهاب كبير فوائد العمل فهو الذي يحرر البروليتاريا ، ويخلق الشيء من اللاشيء ، ويولد الاقتصاد ، ويخلق المجتمع والثروة ، وينشىء العدالة ،ويحرك السياسة (في الديمقراطية العمالية تكون السياسة نتيجة الاقتصاد) ، وهو ينبوع الفلسفة وطريقة مثلى في التربية .. الخ .

ثم يبدأ برودون في تحليل العمل بشكل شبه علمي فهو يقرر أن رأس المال ليس غير عمل متراكم ، والأجرة هي عمل مجسد واذن ولما كان رأس المال

ليس اكثر من عمل متراكم فان على رأس المال أن يخضع للعمل كما أن العمل هو الذي يحدد العلاقة بين المنفعة والقيمة .

نقد النظام الرأسمالي : ينتقد برودون النظام الرأسمالي الذي يعطي العامل اجراً أقل من العمل الذي يمارسه او البضاعة التي ينتجها ، وهكذا فإن للعامل الحق في امتلاك الشيء الذي انتجه كما ان له الحق في المشاركة بالارادة والانتاج .

نقد الشيوعية العقائدية : رغم امتداحه للشيوعية والشيوعيين فان برودون يرفض القضاء على الملكية ، لأن الشيوعية تقوم على احلال الانسان الجماعي محل الفرد وهذا مفهوم مخالف للحرية التي يجب أن تكون أساساً لنظام ثالث من المجتمعات الملكية المشاعة والتملك .

تقسيم السلطات وتوازنها : بعد ان يقسم برودون المجتمع الى اربع سلطات هي :

١ ـ السلطة القنصلية ١ ـ السلطة التنفيذية ٣ ـ السلطة التحكيمية ٤ ـ السلطة التعليمية .

فانه يطالب بتوازن هذه السلطات ضمن الدولة .

العدالة قانون الفلسفة : يكثر برودون من ترديد كلمة العدالة التي هي في نظره هدف الانسان الأخير ، ويصف العدالة بانها ذاتية وموضوعية بآن واحد ، وبأنها بمثابة عقد تبادلي يولدها العمل .

الخاتمة :

بعد هذا الاستعراض لفكر برودون كما جاء في مقدمة بنسكال وفي كتابات برودون نفسه بقي علينا ان نقول كلمة أخيرة عنه :

رغم كل المآخذ التي يمكن للباحث ان يأخذها على برودون في عدم وضوح أفكاره المتناقضة وعدم امكانية قبول تعايش الملكية مع العمال جنباً الى جنب، يتقاسمان الأرباح والانتاج والادارة بفضل مفهوم العدالة والحرية وطوباثيته المغرقة في التفاؤل عن انشاء اتحاد زراعي صناعي ، وجمعيات استهلاك وانتاج ونقابات مشتركة .. أقول رغم كل هذه المآخذ فإن لبرودون دوراً لا ينكر في صياغة الفكر الاشتراكي في القرن التاسع عشر، وهو زمن لم تكن الحركة العمالية فيه قد نضجت بما فيه الكفاية ليتمكن المرء من تحليل امورها بشكل علمي صحيح. وحتى ماركس اعترف بفضل برودون هذا من خلال حواره ثم خصامه له، ثم ان برودون يعطي للفرد قيمة مطلقة ويساويه بالمجتمع ككل، فالفرد في رأيه مجتمع، والمجتمع فرد ، وهذا منتهى تكريم الانسان والاعتراف بعظمته .

ولا شك ان لبرودون فضلاً على الفلسفة والسياسة والتربية ، وان كان أثره الاجتماعي اكثر أهمية وخاصة على مفهوم النقابيه .

كما يعتبر برودون رائد التكاملية والذرائعية والواقعيـــة الاجتماعية ، وأخيراً فان مجتمعنا العربي الاشتراكي الجديد لجدير به ألا يهمل مفكرين اشتراكيين ذائعي الصيت كفورييه وسان سيمون وبرودون ، وألا يقتصر على قراءة ماركس .

التركيب الطبقي الفلسطيني (١)

في عهد الانتداب

في المكتبة العربية ، وحتى الأجنبية المهتمة بالقضايا العربية ، نادرة هي المصادر الجادة الباحثة في التركيب الطبقي للمجتمع العربي الفلسطيني وآثاره في الثورات والانتفاضات الفلسطينية ما بين ١٩١٩ - ١٩٤٧ بصورة خاصة . وكذلك قليلة هي الكتب ، إن لم نقل نادرة ، التي تبحث في آثار هذا التركيب على كل من : حركة التعليم وحركة التحديث في المجتمع العربي الفلسطيني سواء قبل النكبة او بعدها ، بيد ان السيد نبيل أيوب بدران أصدر الجزء الأول من كتابه القيم « التعليم والتحـــديث في المجتمع العربي الفلسطيني » ،

---

(١) دراسة قامت بها « المعرفة » لكتاب (التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني) لنبيل ايوب بدران / دراسات فلسطينية (٦٣) / منشورات منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث - بيروت ١٩٦٩ .

والجزء الأول مخصص لعهد الانتداب . ان صدور هـذا المرجع يعد بحق بداية هامـــة في التحول نحو مزيد من الجدية والعلمية في دراسة تاريخ القضية الفلسطينية ، وتاريخ النضال الفلسطيني ووضعها في مكانها الطبيعي ضمن مسار حركة التحرر الوطني العربية والانسانية .

ونحن ، هنا ، لن نحاول تقديم عرض موجز للكتاب (٣٥٨ ، صفحة) إذ ان الكتاب ذاته جاء موجزاً مكثفاً وموثقاً بحيث لاتقدم عملية العرض صورة صحيحة ومنصفة عنه . بيد اننا سنحاول ان ندرس مسألة التركيب الطبقي الفلسطيني في عهد الانتداب على ضوء ماجاء في كتاب السيد نبيل ايوب بدران المذكور .

الطبقات المتميزة في المجتمع العربي الفلسطيني حتى مجيء الانتداب ، وحسب ما جاء في كتاب السيد بدران هي : ١ - الوجهاء ٢ - البورجوازية المتوسطة والصغيرة ٣ - الطبقة العمالية الفلاحية . وطبقة الوجهاء هي : الاشراف وبقايا الاقطاع التقليدي والاقطاعية الجديدة ، التي سميت البرجوازية الكبيرة التجارية، وهي مشابهة لما أسماه ماوتسي تونغ بـ « الكومبرادور » الى حد بعيد . أما البرجوازية المتوسطة فهي طبقة الملاك - الأملاك العينيـــة - التي ارتفعت أسعارها في عام ١٩١٥ وأصبحت طبقة تجار زراعيين نزحوا الى المدن الرئيسية - والبرجوازية المتوسطة عند بدران هي : سكان المدن من جميع الطوائف الذين استفادوا من ارتفاع اسعار ممتلكاتهم وازدياد نشاطهم الاقتصادي أي زيادة دخل المحلات التجارية « ص ٤٤ » . أما البرجوازية الصغيرة فهي التي لاتملك شيئاً ولكنها تشترك مع البورجوازية المتوسطة في الاستفادة من عملية التحديث . وهـــذا

التعريف لاينطبق نهائياً على التحليل الماركسي للطبقات كما هو مفهوم . ومن أخطاء تعريف البورجوازية الصغيرة عن بدران هنا هو تحديدها - بالتحديد - لانتماء ديني معين . يقول انها مسيحية . وهذا ليس شرطاً اطلاقاً . أما الطبقة العمالية الفلاحية - حسب تعريف بدران - فهي مفهومة . ولم يقم المؤلف بعملية فصل ما بين الطبقتين - العمال والفلاحين - كما نفهم جميعاً . لكنه راعى الشكل العام السائد قبل عام ١٩١٨ للمجتمع العربي الفلسطيني في ظل الحكم التركي . بيد انه عمد الى التقسيم لتبيان مناطق وجود هاتين الطبقتين ومدى ظهورهما على المسرح ودقته .

المجتمع العربي الفلسطيني مجتمع زراعي - بالدرجة الأولى .. وكانت تسوده الاقطاعيات - الاسلامية - القديمة حتى الحرب . ولكن النفوذ الاستعماري الجديد - البريطاني - ومحاولات الصهيونية التي بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر غزو فلسطين والاستيطان فيها - أقول : هذين العاملين أديا الى ظهور تطورات جديدة بعد عام ١٩١٩ في المجتمع العربي الفلسطيني . الوجهاء والاقطاع التقليدي يضيقون على الفلاحين فيصبح هؤلاء اما تابعين لهم أو مهاجرين الى المدن . الصهيونية تضغط على الفلاحين في محاولة منها لأخذ مكانهم وربط الصهيوني بالأرض الموعودة . والاستعمار البريطاني يقوى نفوذه في المدن وتنشط حركة السياحة فتخلق الطبقة الوسيطة وتزيد من فعالية البورجوازية الكبيرة وتنمية نشوء الطبقة البورجوازية المتوسطة هناك . في هذا الجو بدأ النضال العربي الفلسطيني ضد مشاريع الغزو الصهيونية للاراضي العربية . ووسط هذا الجو أخذ الفلاحون يبحثون عن رؤية نور - التعليم - المحدد . وهكذا لم يستطيعوا ، بفضل الظروف الموضوعية ، ان يسهموا في حركة التحديث الناشئة بفعل التعليم رغم أنهم دفعوا الأموال لإنشاء المدارس . ولكنهم ساهموا في عملية النمو غير الطبيعي لسكان

المدن كنتيجة طبيعية للاضطهاد الذي يتعرضون له من قبل الزعامات القديمة والوجاهات الاقطاعية والنفوذ الديني والمنافسة التي خلقتها الطبقات المحددة الجديدة.

ان من شأن هذا التركيب الطبقي للمجتمع العربي الفلسطيني ان يحدد الاتجاهات الفكرية السائدة أو التي سادت خلال تلك الحقبة: التفكير العشائري والديني طاغيان على المجتمع العربي الفلسطيني وهذا مما اكد العزلة بين الطوائف الدينية في فلسطين «ص ٦٦ – ٦٧». بيد ان الوحدة المسيحية الاسلامية في فلسطين تأكدت بفعل عوامل عديدة أهمها: التأكيد على قضية التسامح الديني، واعتياد الشعب الفلسطيني على وجود الاجانب بينه وقوة الاختلاط المسيحي الاسلامي. وكان للغة العربية أثرها البالغ في تحديد مسار القضية القومية. ومن خلال عملية الصراع الدائرة بين هذا المجتمع وبين الاستعمار البريطاني والغزو الصهيوني والاستغلال، امكن اكتشاف الذات القومية بجميع ابعادها كما امكن اكتشاف ميزات الكيان المتميز المستقل. «ص ٧٢». لقد ساعد الشعور البورجوازي بالتفاخر بالامة العربية «كخير أمة أخرجت للناس»، والهزء بالاتراك؛ على نمو الوعي القومي بالاضافة الى الضغوط المستمرة من قبل عملية التحديث التي جاء بها الشباب المتعلم وتأثيرات ظاهرة التقدم الأوروبي.

أما الفكر الديني فلقد كان هو الآخر نامياً متصاعداً يساعد على تكوين الحلقات التعليمية على غرار تلك الموجودة في القاهرة ودمشق. وساعد الاغتراب على معرفة العلاقات الانسانية الجديدة في ظل انهيار النفوذ المادي الكنسي الأوربي وبروز النفوذ الجديد للرأسمالية والحضارة الجديدة. لكن حركة التحديث المعتمدة اساساً على التعليم في فلسطين استطاعت التأثير في مكانة الهيبة الدينية – المسيحية بادىء ذي بدء.

ولكن ماهي القيم السائدة في المجتمع العربي الفلسطيني حتى عهد الانتداب؟

أولاً : القيم الدينية ـ الاسلامية المسيحية . تفشي روح القدرية بفعل عصور الجهل والفساد والطغيان . تدين مفرط وازدراء بالحياة الارضية «ص ٨٦».

ثانياً : قيم التنظيم الاقطاعي السابق : الحكم المطلق ، استبداد تام .. تناقض مع الفلاحين الذين يريدون تملك الأرض «ص ٨٧» .

ثالثاً : القيم العشائرية او البدوية ـ تلازم البداوة مع الحضرية . الترابط العشائري ورفض كل سلطة جغرافية ـ الاستقلال . «ص ٨٨» .

رابعا : تقاليد المدن العربية العريقة : كتقدير العلم والعمل ـ قيم الملكية والوطأة المعنوية ـ دينياً ـ والمادية «ص ٩٠»

خامسا : استيعاب المجتمع البدوي والعشائري والفلاحي من قبل المجتمع الحضري ادى الى تجديد الهيكل التقليدي «ص ٩١ - ٩٢»

سلبت الطبقات المستغلة الفرد انسانيته ، وهو بهذا فقد القدرة ـ نهائياً ـ على التفكير العلمي الثوري لأن ظروفاً موضوعية معينة هي التي تولد التفكير العلمي الثوري وتجعل من الانسان انساناً علمياً عملياً وفكرياً . وعلى هذا فقد عجز الانتماء الطبقي للفئة المتعلمة عن استيعاب أي شيء سوى :

ـ قبول التحالف مع الاستعمار للاعتقاد بالمصلحة المشتركة بينه وبين العرب.

ـ المطالبة بالخلافة العربية والارتباط مع الرجعية العربية ـ كالبحث عن ملك يجده في فيصل المثقف «ص ٩٨» .

وعلى هذا نستطيع ان ندرك ان التطورات التي حصلت حتى عام ١٩٤٨ على الصعيد الاجتماعي هي :

اولا : ازدياد نفوذ البرجوازية الكبيرة المتطورة ـ الجديدة .

ثانيا : التلاؤم مابينها وبين الحكم الجديد ـ الاستعماري ـ .

ثالثا : ازدياد الصراع بين الوجهاء سعياً وراء النفوذ .

رابعا : ازدياد تمرد الجماهير على النظام الفكري التقليدي الذي يهز ثقتها بنفسها .

خامساً : اتساع حجم التعليم وظهور فئات جديـــدة من البرجوازية المتوسطة والصغيرة .« ص ١٠٦ »

سادسا : ازدياد قيم المجتمع التجاري وبقاء المسلك الفردي العاطفي والرومانتيكي .

التعليم والطبقات :

سعت السلطات الجديدة ، مع بقايا الوحدة والنظام القديم وتحفز الطبقات التجارية الى ازدياد نسبة التعليم . ولكن الاحصاءات المتوفرة تبين ان مستوى التعليم لم يصل الى اكثر من ١٤٪ من مجموع سكان عرب فلسطين حتى عام١٩٤٧ ، رغم ان تقارير المبعوثين تقول بأن اقبال جماهير العمال والفلاحين كان بنسبة كبيرة. ولم يكن يقبل في احسن الاحوال من المتقدمين اكثر من نسبة ٥٧٪ أي لو ان السلطات المحتلة فسحت المجال امام الجماهير الفقراء للتعليم – للذكور والاناث – لكان معدل التعليم في فلسطين منذ ١٩٢٩ اكثر من ٢٧٪ . وتدل الاحصاءات ان نسبة المتعلمين في صفوف المسيحيين كانت اكبر منها في صفوف المسلمين بفعل تأثيرات المدارس الدينية الكثيرة المنتشرة في المدن الفلسطينية الاساسية . واذا كانت النسبة لابأس بها فان هذا لايرجع فضله الى سلطات الانتـــداب ، اذ ان التعليم توسع في اواخر سلطة الاتراك على فلسطين « ص١١٠ » ، واهتمت المجالس الاسلامية بالتعليم حيث انشأت حتى عـــام (١٩٢٢ –) ٤٢ مدرسة . ولكن

ارتفاع نسبة المدارس هذه تجمد في عام ١٩٤١ مع بعض الانخفاض .«ص١٢٢» ولقد لعبت المدارس التبشيرية والاجنبية دوراً هاماً في نشر التعليم خلال فترة الانتداب .

ان توسع الشبكات الجديدة للحياة كان عاملا اساسياً وهاماً في بحث ابناء طبقة الفلاحين والعمال الدؤوب عن التعليم اذ كان التعليم سبباً للتفاخر والتخلص من سلطات الوجاهات وتأثيراتها . وهكذا سعى الكثيرون الى المدن الكبيرة من أجل هذا الهدف مستعينين بما تلقوه على ايـــدي « الكتاتيب » في القرى والارياف . غير ان هذا العامل لم يكن هو العامل الاساسي لسعي ابناء الشعب العربي الفلسطيني إلى التعليم . فثمة أسباب أخرى هامة منها :

– اتمام عملية النضال الدؤوب ضد الاستعمار والصهيونية . فلقد ادركت الجماهير ان العلم سلاح فتاك للقضاء على السيطرة الاستعمارية والنفوذ الصهيوني المتزايد .

– رفض الشعب الحكم الاستعماري والتقسيم الجائر للأراضي العربية ، ومطالبة الجماهير بالحكم الذاتي .

ولقد عقد الشباب الفلسطيني العديد من المؤتمرات التي توضح اهدافـــه واصراره على التمسك بوحدة الأرض العربية والتخلص من السيطرة الاستعمارية. وكان القسام من أهم الرجال الذين آمنوا بالسرية في العمل والتعليم كأساس لخلق كادر ثوري في الريف يستطيع القيام بالثورة ضد الاستعمار البريطاني . ولقد طالب الوطنيون دائماً بانشاء المدارس . كل هذا يعود الى الادراك العميق لتأثير التعليم في مسار الجماهير وحركة الثورة والتاريخ . بل كانت المؤتمرات تصر على ارسال البعثات الى الخارج ، في ذلك الخضم الهائـــل من الصراع . ولكن

المتعلمين الفلسطينيين كانوا دائماً — في الاعوام ١٩١٩ — ١٩٤٧ — عرضة لقبول الحلول الوسط بفعل انتماءاتهم الطبقية ، إذ تحكمت دائماً المصالح الطبقيـــة في مواقفهم من القضية القومية والقضية الوطنية . ومما ساعد في بناء التنظيمات الجماهيرية والاحزاب والنقابات وجود ونمو حركة التعليم . ولكن من هي الفئة التي سيطرت على الحركات والاحزاب حتى جعلتها اداة تنفيس فارغة لرغبات واندفاعات الجماهير العفوية او المنظمة كحركة القسام ؟! انها البورجوازية الكبيرة والمتوسطة . اما النقابات العمالية فلقد اظهرت بصورة جلية مقدرة هذه الطبقة ـ العمال ـ على النضال . لقد كان للاضطهاد الصهيوني للعمال العرب وانخفاض مستوى المعيشة وانتشار البطالة اثره في دفع العمال الى انشاء المزيد من النقابات (ص ٢٤٩) ولكن هذه الحركة لم تكن متجانسة ، ليس فقط عقائدياً بل وطبقياً نسبياً ، فالنقابات الرسمية تضم الموظفين وهي متعالية على النقابات العمالية التي تضم العمال الأميين .

وهكذا ظلت قوة التأثير العمالي واهية لعدم توفر الشروط الأساسية كتوفر وعي ثوري لدى الطبقات ذات المصلحة الحقيقية في التغيير ولدى المثقفين الثوريين من الطبقات الأخرى والملتحمين عضوياً بالطبقة الكادحـــة ، وكتوفر طليعة نقابية ثورية مسلحة بالتفكير العلمي . « ص ٢٥١ » .

لقد تميزت تصرفات الطبقات الفلسطينية بالنسبة لموقفها من الثورات بميزات اساسية حددتها انتماءاتها الطبقية فالجميع يعرف ان الذين ركبوا موجة المد الجماهيري كانوا اما من طبقة الوجهاء التقليدية او من رجال الدين الرجعيين أو من البورجوازية الجديدة المتنفذة في المدن ، اما الذي كان وقود الثورات فهم العمال والفلاحون . كانت المساومات وقبول انصاف الحلول ميزتين اساسيتين من ميزات الطبقات المتنفذة دينياً او للطبقة البورجوازية بينما كانت التنازلات الى حد الوقوف

ضد اماني الجماهير ميزة البورجوازية الكبيرة التي شكلت الاحزاب الرجعية «كحزب الدفاع والاستقلال» ، وكانت الحركة اليسارية واهية وضعيفة وغير منظمة حتى جاءت «عصبة التحرر» ، ولم تستطع الوصول الى جماهيرها الحقيقية بفعل الظروف الموضوعية الناشئة عن سيادة السيطرة الروحية الدينية والاقطاعية القديمة والوجاهات، والدعوات الدائمة الوسطية «لوحدة الامة» في وجه الاخطار .

هذه خلاصة لأهم مشكلة يعرضها السيد بدران في كتابه «التعليم والتحديث في المجتمع الفلسطيني ، الجزء الأول : عهد الانتداب» بيد ان هذه الخلاصة لاتقف مكتملة إذا لم تقدم خلاصة وافية أخرى للجزء الثاني الذي لم نطلع عليه بعد ، ربما لعدم طباعته حتى الآن . ولكن الكلمة الحقة التي تقال ، رغم جميع النواقص التي جاءت في هذا الجزء ، ان الجهد كان رائعاً لظهوره في هذه المرحلة العصيبة من مراحل نضال جماهيرنا الدؤوب من أجل تحرير فلسطين .

اعلان هام

الى السادة المشتركين في « المجلة »

قررت إدارة مجلة « المعرفة » أن توزع هديتها على المشتركين في عام ١٩٧٠ اعتباراً من شهر شباط (فبراير) ولغاية شهر حزيران (يونيو). والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري . وتضع المجلة أمام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب ، ليختار المشترك منها كتاباً نقوم بإرساله إليه مع العدد القادم . ونرجو أن يتفضل المشترك بإعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن ، وأن يبين لنا العنوان الذي يرغب في أن نرسل إليه الكتاب الهدية :

فكر لينين : للباحث الفرنسي هنري لوفيفر ، ترجمة ومراجعة د. كمال الغالي وأديب اللجمي

السفسطائي : للفيلسوف أفلاطون ، ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة

دفتر السجن : مقتطفات من أشعار الرئيس الفيتنامي الراحل هوشي‌مين ، ترجمة وصفي البني

الانسان والفضاء : سلسلة تبسيط العلوم ، لآرثر كلارك ، ترجمة ماجدة مفتي

حديث عن فيتنام : مسرحية للكاتب الألماني بيتر فايس ، ترجمة إبراهيم وطفي

الرياضيـــات : سلسلة تبسيط العلوم ، لبرغاميني ، ترجمة نجاح شمعة قدورة

برودون : مؤلفات مختارة ، جمع وترتيب الباحث الفرنسي جان بنكال ، ترجمة د. عمر شخاشيرو

أدب المقاومة في فيتنام : مقتطفات من الأدب الفيتنامي ، ترجمة الأديب المصري غالي شكري

الفكر العلمي الحديث : للفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار ، ترجمة د. عادل العوا

انسان : مسرحية شعرية لسليمان العيسى

إن هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة ، إلى أن يبادروا لتسجيل اشتراكهم فيها وإرسال القيمة حوالة بريدية أو شيكاً على أحد المصارف المعتمدة في دمشق باسم محاسب مجلة « المعرفة » ، وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم مع أول عدد يصلهم .

إلى شعرائنا في الوطن العربي

أمام الحاجة الملحة الى أناشيد عربية جديدة تذكي روح الحماسة ، وتحفز على العمل في معركة المصير التي تخوضها الأمة العربية ، تعلن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عن مسابقة تدعو فيها الشعراء العرب الى تأليف كتاب للأناشيد المدرسية بعنوان « أولادنا ينشدون » يساهم فيه كل شاعر بنشيد أو أكثر . واجين ان تتحقق في النشيد المطلوب الشروط التالية :

١ – أن يكون بالعربية الفصحى .

٢ – ان يتناول موضوعاً من الموضوعات القومية او الإنسانية أو الاجتماعية وبخاصة فكرة الوحدة العربية والاشتراكية ومقاومة الظلم والعدوان بجميع أشكاله .

٣ – أن يعنى باللقطات والزوايا الصغيرة في حياة البيت والمدرسة .

٤ – ان يعتمد البحور القصيرة المنوعة الأوزان والقوافي لكي تلائم التلحين والغناء .

٥ – ألا تتجاوز أبيات النشيد خمسة عشر بيتاً من البحور القصيرة .

٦ – أن تكون الأناشيد المطلوبة متدرجة في مستواها تلائم الطلاب من من السادسة الى الخامسة عشرة .

٧ – يمنح المؤلف مكافأة مالية لكل نشيد جديد تقره اللجنة تتراوح مابين ٣٠٠ و ٥٠٠ ليرة سورية ويتراوح عدد أناشيد الكتاب مابين / ١٥ الى ٢٠ / نشيداً .

٨ – تكتب الأناشيد بخط واضح حاملة اسم المؤلف وتوقيعه وترسل بالبريد العادي الى العنوان التالي :

دمشق – وزارة التربية

مديرية البحوث – لجنة مسابقة الأناشيد

٩ – آخر مدة لقبول الأناشيد في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٠

وزير التربية





يجري سحب الاصدار الشعبي الخامس

بتاريخ ٣ آذار ١٩٧٠